

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

العرب

تاريخ وحضارة

أنثوني ناتنج • محمود مسعود



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : امينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى ابوالمجد

مكتب التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٤٩ - صفر ١٤٠٠ - يناير ١٩٨٠

No. 349 — January 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي - ١٢ عددا - جمهورية مصر العربية
جنهان مصريان بالبريد العادى * وبلاد اتحادى البريد العربى
والافريقى وباكستان. ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى * وفى
سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا
بالبريد الجوى *

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج * م * ع *
بحواله بريديّة غير حكومية وباقي بلاد العالم بشيك مصرى لأمم مؤسسه
دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه
عند الطلب *

كتاب الهدى



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

العرب

تاريخ وحضارة



تأليف: أنستوني سناقتنج
ترجمة: محمود مسعود



دار الهلال



الجزء الأول

الفصل الأول :

العالم العربي قبل الإسلام

يصنع الناس التاريخ أكثر مما يصنع التاريخ الناس .
بيد أنه لا يمكن وجود جنس أو أمة اتسم تاريخها بالطابع
الشخصي أكثر مما اتسم به تاريخ العرب . ففي قرابة
أربعة عشر قرناً ، منذ قيام النبي محمد (صلى الله
عليه وسلم) ، تتكشف قصة العالم العربي مثل سلسلة
جبال ممتدة ، تمثل قممها الشاهقة الفتوح وعظائم الأعمال
التي قامت بها الشخصيات التاريخية الكبرى - خالد بن
الوليد ، صلاح الدين ، عبد الرحمن الناصر ، بيبرس ،
محمد علي ، وجمال عبد الناصر - وفيما بين القمم أفوار
ووديان شديدة الانحدار تعنى تدهوراً عميقاً بعد أن تغادر
كل شخصية كبرى المسرح . ولقد تعاقب على حكم العالم
العربي عبر القرون ، جزئياً أو كلياً ، أسر حاكمة مختلفة -
الأمويون ، والعباسيون ، والفاطميون ، والأيوبيون ،
والمماليك ، والعثمانيون ، وأسرة محمد علي ، ثم
الهاشميون . وعلى نسق متشابه تماماً كان مؤسس كل
أسرة ينشئ إمبراطورية لا يلبث ورثته وخلفاؤه أن يفقدوها
عاجلاً أم آجلاً ، فيقوم على الأثر زعيم جديد وأسرة
حاكمة جديدة ويتكرر هذا على طول القرون .

ان هذا الطابع من تعاقب الانجاز العظيم والتدهور

العميق ظل يحدث في العالم العربي منذ أن بشر محمد (صلى الله عليه وسلم) بعقيدة التوحيد وبث في صحابته روحا مكنتهم من أن يخرجوا من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ويفتحوا فلسطين ومصر وسوريا والعراق وفارس . وقد بلغت الفتوح الأولى ذروتها في عصر الأمويين ، الذين نقلوا مقر الخلافة من مكة الى دمشق وذهبت دولتهم تمد رقعتها عبر آسيا وأفريقية وأوروبا حتى أقامت أكبر امبراطورية في تاريخ العالم - من منفوليا الى مراكش ، ومن عدن الى جبال البرانس . وبعد ذلك انتقل مركز السلطة فجأة الى العراق ، بعد أن تولى العباسيون الخلافة من أيدي الأمويين ، وأنزلوا بهم الانتقام الرهيب واستأصلوهم عن بكرة أبيهم تقريبا من الوجود. ولكن بعد أن تحول العباسيون من بناء الامبراطوريات الى خلق مركز للثقافة والأبهة في بغداد لا مثيل في عصره ، ما لبث العرب أن مالوا الى الدعة بعوامل الترف والشراء ، وبرهنوا على أنهم غير أئداد للفاطميين الذين أداوا دولتهم من مصر ، وللصليبيين الذين غزوا فلسطين ، أو لحجاجل المفل بقيادة هولاءكو وتبمور لنك التي قهرتهم في فارس والعراق والشام . ثم جاء صلاح الدين وأسرته الأيوبية بدورهم فدمروا الفاطميين وحرروا فلسطين والشام من الصليبيين الغزاة . ولكن حتى امبراطورية صلاح الدين الكبرى لم تلبث أن تمزقت بددا من خلال المنازعات التي نشبت بين خلفائه وسقطت في أيدي المماليك .

وكانت مصر حتى وقتئذ قد أصبحت مركزا جديدا للنفوذ العربي. والثقافة العربية . بيد أن هذا لم يكن كافيا لصمد المد التالي للغزو عندما هبط الأتراك العثمانيون

زاحفين من الأناضول وفرضوا امبراطوريتهم على العرب
من نهر الدجلة الى نهر النيل وفيما وراءهما . وكان مقدرا
لمحمد علي ، الضابط في فرقة البايه بالجيش العثماني .
ان يرفع راية الثورة ضد سيطره الأتراك ، وكذلك قدر
لجماعه من العرب المسيحيين في الشام أن يوقفوا من
جديد العالم العربي من سبائه الطويل تحت الحكم
العثماني .

وفي خلال الحرب العالمية الاولى انتزعت أسرة
الشريف حسين الهاشمية بمكة الاستقلال من الامبراطورية
التركية المتداعية ، ولكنها ما لبثت بعد بؤادر اولية
للتجتاح ان وقعت فريسة لدسائس انجليزية فرنسية
لطلائع قوة جديدة ناهضة : هي قوة آل سعود حكام نجد
في وسط شبه الجزيرة العربية . ولم يبق الآن من هذا
البيت الهاشمي سوى حاكم وحيد في الأردن ، يستمد قوته
الى حد كبير من الانقسامات بين منافسيه وجيرانه ، في
حين قام زعيم سياسي جديد هو جمال الناصر ناصري
بقومية عربية ثورية جديدة أخذت تنتشر كالنار في مشاعر
الجنس العربي .

ولن تحاول الفصول التالية من هذا الكتاب سرد هذا
التاريخ الطويل وروايته على وجه التفصيل ، بقدر
ما تسعى الى تصوير الشخصيات ، الصالح منها
والطالح ، صاحب الشهرة الطيبة وصاحب السمعة
السيئة على السواء ، ممن تضسافروا في وضع
سطور هذا التاريخ . انها ليست سجلا للأحداث
بقدر ما هي معرض صور للشخصيات التي جعلت الاحداث
محتومة واقعة .

وبسبب الافتقار الى الكتابات المدعمة بالوثائق نتيجة

لعدم توفر ورق الكتابة فيمسا عدا ورق البردى الذي
اشتهرت به مصر ، فقد ظل التسلسل التاريخ العربي المبكر
مقصودا الى حد كبير على الروايات والأمثال
والقصائد مما كان يتواتر شفاهيا ولا يجسرى
تدوينه في الورق على مدار مئات الأعوام بعد الأحداث
التي تشير اليها . ولكن محاولات ناجحة في القرن التاسع
عشر لفك رموز الكتابة المسمارية التي ترجع الى ما قبل
المسيحية قد كشفت عن تشابه بين لغة البابليين
والآشوريين والآراميين والسكلدانيين والفينيقيين
والعموريين والعبرانيين والعرب والأحباش ، تشابه كان
له من القوة واسترعاء النظر ما أوحى بأن هذه الأقوام
لا بد أنها انحدرت من أصول واحدة . ومن هذا المنطلق
ثبت ان أسلافهم المشتركين كانوا هم العرب الأصليون
أو الساميون من قبيلة سام - ولفظ (عربى) هو التعبير
السامي عن ساكن الصحراء - قد عرفنا الآن ان أوائل
الاستيطان السامي في جزيرة العرب حدث في اليمن
في عهد مملكة يعسرب ، وهو الجيل الخامس
من سلالة سام . وحدث بعد أن أصبح هذا
الركن من شبه الجزيرة العربية أضيق من أن يتسع لعدد
متزايد من السكان ، ان اتجهت الهجرة العربية الاولى
حوالى عام ٣٥٠٠ ق. م. الى الخارج على امتداد الساحل
الغربي لشبه الجزيرة العربية ، مرورا بالحجاز وسيناء ،
الى أرض مصر ، حيث اختلط الساميون بالحاميين فجاء
منهم المصريون الذين عرفهم التاريخ وأقاموا من عناصر
العلم والثقافة ما هو أساس حضارتنا الراهنة .

وقد بدأت هجرة أخرى على الشواطئ الشرقية
لشبه الجزيرة العربية وانتهى بها المطاف الى الاستقرار

فى وادى نهري الدجلة والفرات ، حيث اتحد الساميون مع السومريين اللاساميين وجاء منهم البابليون ، وكمسا حدث مع نظرائهم فى مصر، فقد أخذوا من الثقافة المحلية والعادات والطرائق العلمية ما يفى باحتياجاتهم . وبعد ألف سنة أخرى حدثت هجرات أخرى عربية الى الشام وفلسطين ونشأت عنها أمم العموريين والفينيقيين . وبعد ألف سنة أخرى فيما بين عامى ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق . م . ، قدم العبرانيون الرحل الى فلسطين وأقاموا أول ديانة فى العالم تدعو الى التوحيد ، وقد أصبحت بدورها أساسا للعقيدة المسيحية . وفى نفس الوقت اتجه الآراميون الى الشام وأسسوا عاصمتهم فى دمشق . ولسكن الآراميين ما لبثوا فى القرن التاسع قبل الميلاد أن دالت دولتهم أمام الآشوريين من سلاسل البابليين ، الذين جاءوا من نينوى وأنشأوا امبراطورية امتدت من أرض بابل (جنوبى العراق) الى أرمينيا فى الشمال وفينيقيا (أو لبنان كما هى اليوم) فى الغرب ، وهى امبراطورية نافست - وأن لم تفق قط - امبراطورية بابل ذاتها . وإلى الشرق من ذلك سيطر الميديون على فارس الحديثة بأسرها وعلى جزء كبير مما نعرفه الآن باسم باكستان فى حين أصبح شبه الجزيرة العربية قلعة منيعة لعرب الصحراء لا ينفذ اليها طارق .

وقد خلف الكلدانيون لفترة قصيرة الآشوريين فى حكم الشام وجنوب الجزيرة وجنوب تركيا . ولكن استقلال هذه الامبراطوريات القديمة ما لبث فى القرن السادس قبل الميلاد أن لقي نهايته بهجوم البارثيين أسلاف الفارسيين اليوم ، أولئك الذين انطلقوا من معاقلهم جنوبى بحر قزوين واستولوا على امبراطورية الميديين فى الشرق ومدوا رقاع ممتلكاتهم لى تشتمل آسيا الصغرى وشطرا من

اليونان ، بالاضافة الى مصر وليبيا وفلسطين والشام والعراف . وبعد قرنين من الزمان عكس اليونانيون الوضع تحت قيادة الاسكندر الأكبر وحضوا محل الفرس ، لكي يسقطوا هم انفسهم على ايدى الرومان . وبحلول القرن الثانى الميلادى استولت روما على امبراطورية اليونان كلها من ليبيا الى العراق ، ولكنها صدت عند حدود بارثيا وصحارى الاراضى العربية فى الجنوب . وبعدئذ كما هو الحال فى التاريخ الحديث ، ركزت الامبراطوريات الكبرى فى اوروبا اهتمامها على الاراضى الخصبة فى شمال وشرق البلاد العربية ، تاركة الاقاليم الصحراوية المجذبة من شبه الجزيرة العربية وشأنها .

وكانت العلاقات بين جميع السلالات المختلفة للمهاجرين العرب الاصليين وبين حكامهم من الفرس واليونانيين والرومان سلمية ومنسجمة . لقد هيا الاطراف الثلاثة بعضهم لبعض فرصا طيبة للتجارة ، وبعد اعتناق روما للمسيحية دخل الكثيرون من رعاياها فى الشام وفلسطين ومصر فى الديانة الجديدة . ولكن خلال الاحتلال الرومانى نمت اشد التطورات المسترعية للنظر فى مجال التجسسارة وقد بدأ ذلك فى جنوبى شبه الجزيرة العربية . ذلك ان مملكة اليمن الاصلية كانت حتى ذلك العهد قد انهارت وانقسمت الى مجموعة من الدويلات والممالك الصغيرة : كانت مملكة سبأ هى القوة المسيطرة فيها فيما بين عام ٧٥٠ وعام ١١٥ ق . م . وقد استطاع اهل سبأ ، او فينيقيو الجنوب ، ان يباشروا عمليات تجارية وافرة الربح كان قوامها اساسا اعادة نقل وتصدير اللبان والاقمشة والحرائر الصينية ولآلىء الخليج (العربى) ومنسوجات الهند الى جانب منتجاتهم من التوابل والعطور التى كان يقبل عليها الرومان المشغوفون بالترف .

ولقد دام احتكارهم لهذه التجارة التي كانت تنقلها
الجمال على شاطئ البحر الأحمر مروراً بمكة إلى مصر
والبحر الأبيض المتوسط - مدى قرون عديدة ، إلى
أن وجد الرومان أسعارهم باهظة إلى أبعد حد . وقد
حدث حوالي عام ٢٥٠ ق. م. أن بطليموس الثاني حاكم
مصر عمل في لهفة لوضع بلاده على الخريطة والأسهام
بنصيب في تجارة النقل مع روماء عن طريق إعادة فتح قناة
مهملة كانت قبل ذلك بستة عشر قرناً تربط النيل بالبحر
الأحمر . وبعد ذلك أخذت السفن التجارية الرومانية
والمصرية تذرع الطريق ذهاباً وعودة إلى الشرق مباشرة ،
جالية في عودتها مواد الترف التي عمل التجار العرب على
اقناع العالم الغربي على مدار مئات الأعوام بأنه لا يمكن
الحصول عليها إلا في بلاد العرب . وهكذا انهار رخاء سبأ
وسلطانها .

وكانت البتراء هي الدولة العربية التالية التي ظفرت
بالتفوق التجاري بوصفها مملكة النبطيين ، وكانت تمتد
من العقبة جنوباً حتى دمشق شمساً في القرن الأول
الميلادي . وكان النبطيون ، نسبة إلى نبيوت بن اسماعيل ،
وهم قبائل رحل جذبتهم إلى البتراء مياها الصافية ، قد
قدموا من شرق الأردن حوالي عام ٦٠٠ ق. م. ، وحلوا
محل الأيدوميين أهلها الأصليين . وفي عام ٣١٢ ق. م.
قاوموا غزوا للروم قام به خليفة الاسكندر في الشام ،
ولكنهم بعد قرنين أصبحوا مستعمرة للإمبراطور الروماني
تراخان . وبعد ثلاثمائة عام أخرى أعار النبطيون أنفسهم
للقيام بمحاولة رومانية لفرض جنوب البلاد العربية
والاستيلاء على اليمن . ولكن الحملة باد معظمها وعادت
إلى اليمن موبومة بالعار . وكانت البتراء ، مثل سبأ ،

تجنى مالها من القوافل التي تجتساز ممراتها الضيقة
الوردية الحمراء وتجند عند القبائل المأوى والابل البديلة
والحماية استعدادا للرحلة التالية . على أنه بعد أن طور
الرومان طرقهم البحرية الى الشرق ، متجاوزين شبه
الجزيرة العربية ، ما لبثت البتراء بدورها أن فقدت
مكانتها وحلت محلها بصرى كمركز لطرق القوافل في بلاد
العرب .

ولقد حافظت بصرى حتى نهاية القرن الأول الميلادي
على وجود محايد بصورة غير مستقرة فيمسا بين
امبراطوريتي روما وفارس المتنافستين . ولكن وقوع هذه
المدينة في مركز استراتيجي على الطريق البري بين
الخليج (العربي) والبحر الأبيض المتوسط طريق الشام ،
هيا لها نمو في الثراء حتى أصبحت واحدة من أغنى
البلاد في الشرق الأوسط ، وفي عام ٢٦٠ الميلادي
تمكن حاكمها أذينة من طرد الفرس من الشام ومطاردتهم
حتى أسوان عاصمتهم طيسفون على نهر الدجلة . وهكذا
استطاعت بصرى في مدى أشهر قلائل أن تحكم باسم روما
آسيا الصغرى والشام ومصر . ولكن مجدها كان قصير
الأمد . ففي عام ٢٦٦ قتل أذينة وقيل أنه لقي مصرعه
بفقد من جانب الرومان . وأعقب ذلك فترة نصر قصيرة
حينما انقلبت أرملته الجميلة الطموحة المعروفة باسم الزباء
على روما ، ففقد طردت الرومان من الشام ، واحتلت
الاسكندرية ونادت بابنها ملكا على مصر وبنفسها ملكة
على الشرق . بيد أن روما ما كان يمكن أن تهزم بهذه
السهولة ، ففي هجوم مضاد حاسم على بصرى وقعت الزباء
في الأسر واقتيدت الى روما مكبلة بأغلال من ذهب خلف
المركبة الحربية التي استقلها أسرها .

وفي خلال ذلك حل الحميريون في عام ١١٥ ق . م .

محل أهل سبأ في جنوبي بلاد العرب ، وكانوا قبيلة من النجديين في الجنوب الشرقي ، أسسوا مملكة قدر لها أن تدوم ستمائة عام ، حتى الغزو الحبشي في عام ٥٢٥ الميلادي . وبسبب تناقص التجارة إلى حد ضئيل ، فإن الحميريين وغيرهم من القبائل في جنوب البسلاد العربية ارتدوا إلى حياتهم البدائية السابقة . كان هؤلاء الأقوام البسيطة الذين لم تمسهم بعد الديانة اليهودية والمسيحية يعبدون ما يتفق واحتياجات وجودهم الضئيل . وخلافاً لما كان عليه الفرس الذين تلقوا عن زرادشت عبادة الشمس باعتبارها مقر (الكائن الأعلى) وأن يقرنوا الخير بالضوء والنار ، والشر بالظلام . فإن العرب في تلك العهود كانوا عموماً يعبدون القمر . فعند الفارسي الذي كان يعيش في الأراضي المرتفعة الجبلية كانت حرارة الشمس تفسدو محل قبول وترحاب ، أما عند العربي ساكن السهول الصحراوية فإن الشمس كانت بمثابة قوة قاتلة ، والقمر يجلب النسي والظلام بعد الحرارة المحرقة والضوء الذي يفسد الأبصار في النهار . وكان المتواتر في الأساطير الوثنية أن الحجر الأسود في الكعبة بمكة ، وكان موضع التقديس قبل الإسلام بزمان طويل ، قد ألقاه من السماء هبل إله القمر ، وكان يعبده الحجاج والمسافرون الذين ألهموا القمر . وكانت القبائل العربية الأخرى تحلم بالخصب والظل ، ولهذا فقد كانت تعبد الآبار والكهوف ، والأشجار . وكانت بشر زمزم الشهيرة بقرب مكة محل تقديس خاص ، لما قيل من أنها أنقذت هاجر وإسماعيل من الموت ظمأ في القفار .

وكانت حياة العرب الاجتماعية ، مثل ديانتهم ، مرتبطة بمطلب وجود خشن قاس وكثير الخطر ، وخاصة بالنسبة

للبدوى المرتحل (وهو الاسم المشتق من البادية) . وكانت قوامين وعادات القبائل ، وهى التى بقيت الى حد كبير دون تغيير الى اليوم ، وقد حافظت القبائل على أسلوب حياتهما فى تلك المناطق الفنية بالبتروى اليوم حيث حلت السيارة السكاديلاك محل الجمل كوسيلة لانتقال شيوخ القبائل . وقد نشأت تقاليد البداوة للتغلب على ما فى الحياة الصحراوية من ألوان المخاطر والمعاناة . وكما يقسول فيليب حتى فى كتسسابه (تاريخ العرب) : « ان البدوى ليس من الفجر الذين يطوفون بلا هدف لمجرد التطواف . انه يمثل أفضل تكيف للحياة البشرية مع ظروف الصحراء . وحيثما توجد الأرض المخضرة فانه يتجه اليها بحثا عن المرعى . ان الحياة البدوية هى نمط علمى للعيش فى النفود (وهى المناطق الصحراوية الوسطى فى شبه الجزيرة العربية) مثلها مثل الحياة فى البيئة الضسنامية بالنسبة لدثرويت أو مانشنستر » .

وطبقا لدورة للحياة لا تتغير ولا تقبل التغير منذ العصور السابقة للأسلام ، فان البدوى المرتحل منذ خمسة عشر قرنا من الزمان ظل يعيش ويأكل ويسافر ويتاجر على نفس النمط الذى تحتديه سلالته الى اليوم . فالعنصر الأساسى فى غذائه يتكون من التمر ، والدقيق ، ولبن الناقة أو الماعز . أما الماء فهو يحتفظ به عادة للابل والمعز والفنم . وكان ملبسه ، ولا يزال ، قميصا يمتد حتى ركبتيه ، وفوقه أزار يتدلى حتى رسغى قدميه ، ويفطى رأسه بشال مشدود بحبل ، يطرحه حول عنقه ووجهه لوقايته من الشمس ولدفع الأتربة عن أنفه وفمه . وكان مسكنه بالمشل يهيم له أقل قدر من الراحة ويتألف من خيمة مستطيلة واطئة مصنوعة من

الوبر الأسود أو البنى لجلود الابل أو الماعز . وكان مورد عيشه يقسموم على تربية (أو سرقة) الثيابه والمساعز والجمال ، وأحيانا الخيل ، وبها يبادل السلع للحصول على الطعام وغيره من الأساسيات الضرورية لحياته .

ومن بين كافة ممتلكاته كان الجمل هو أهمها . فانه لا يهيبه له فقط وسيلة الانتقال التي تتطلب أقل قدر من الراحة . وفي قدرة الجمل أن يمضي بغير ماء مدى خمسة وعشرين يوما في الشتاء وخمسة أيام في الصيف . بل ان لبنه يقدم له أيضا شرابه الأساسي ، كما يزوده روثه بالوقود للطهي ، وعندما تنتهي أيامه كدابة للجمل ، فانه يأكل لحمه وينتفع بجلده في صنع أو اصلاح خيامه .

وكانت الزراعة أو أى شكل للعمل اليدوى الذى يحد من حرية البدوى المرتحل في الحسرة أدنى مما يليق بكرامته . ان مثل هذا العمل كان مخصصا للقرويين وأبناء المدن من أهل الاستقرار ، ولل فلاحين والتجار وأرباب الحرف الذين يتكدون فى الحقول وحول مناضد العمل أو الذين يحصلون على رزقهم من قوافل الجمسال التي تدرع الطرق باسئمرار خلال الحجاز في طريقها الى البتراء أو بصرى . وكان هؤلاء القرويون وأبناء المدن الذين يعرفون بأهل الحضر يسكنون بيوتا مبنية من الحجر أو الطين ، وكانت تفصلهم شقة اجتماعية واسعة عن أهل البادية الرحل الذين يعدون انفسهم أكثر رجولة وشرقا وأرفع مقاما . وهكذا كان البسندوى المرتحل اذا ألحت عليه ضرورات المحافظة على الحياة أو اذا اعوزه المال الكافى لجلب الطعام ولم يستطع الحصول عيشه بالافارة على جيرانه من أهل الصحرائات كان يستبيع لنفسه تماما نهب الفلاح أو ابن المدينة للحصول على ضرورياته . وكان

من شأن هذه القرصنة أن تثير حتما أعمق السخط بين العرب المتوطنين ولا ينجم عنها سوى زيادة اتساع وتعميق الشقة القائمة بينهم وبين اخوانهم البدو الرحل . وحتى اليوم وعلى الرغم من أن العرب المتوطنين يتمتعون بحماية قوة بوليسية عصرية وقد أصبح بدوى الصحراء بحكم الظروف شخصا مطيعا للقانون - فإن بعض الكراهية القديمة لا تزال باقية بين الحضري وبين البدوى ، لما يكنه هذا لذاك من احتقار لما تقوم عليه حياته من طراوة هي أدنى منزلة من صلابة سليل المنبت الصحراوى ذى الأيد والشدة ، ذلك لأن بدوى اليوم لا يزال يعد نفسه أرسقراطى المولد وأنه أنبل خلق الله طرا .

لكن ، إذا اعتبر فى الزمن القديم أن الاغارة على جار أو نهب فلاح شيئا مباحا ، فقد كانت تقوم بين المنتمين الى قبيلة واحدة طائفة من القوانين والقواعد تختلف عن هذا كل الاختلاف . فإن ما يعد قرصنته مشروعة خارج دائرة القبيلة كان جريمة إذا ارتكب فى نطاقها . ذلك لأن القبيلة كانت أساس المجتمع البدوى . كانت لدى عرب الصحراء هي أسرته ، ونقابته ، وناديه - بل فى الواقع جماع دائرته الاجتماعية ، فانها تعطيه الحماية ، والعمل والمركز الاجتماعى ، ومورد الرزق . وبدونها فهو خارج على القانون يعتدى عليه كل انسان . وفى نطاقها يستطيع أن يحيا حياة كاملة آمنة بقسدر ما تسمح به بيئته الصحراوية . ومنها يتخذ زوجاته ورفاقه فى القتال ويتخذ ثقافته البدائية وأساسها التدريب العملى فى فنون الحرب ، والصيد ، والاغارة وركوب الرواحل بقسدر ما يلزم لبقائه فى الوجود . ومن ثم كان شعاره هو « الكل للواحد والواحد للكل » وهو القانون المطلق الذى يحكم

حياته . كانت (العصبية) أو التضامن القبلى هي محل الاعتبار الأرفع فوق كل ما عداها . ذلك لأن الافتقار الى أى معنى قومى كما نعرفه ، جعل عربى الصحراء يهب حياته وولاءه لقبيلته . وهكذا كانت (العصبية) بالنسبة اليه مساوية لما نسميه اليوم بالوطنية ، وكل من ياثم فى حق مفاهيمها ويقصر فى مراعاتها فى كل أفعاله ، يلقى العقاب .

ولم يتغير نظام القبائل عبر القرون الا قليلا ، مثله ذلك مثل قسوانيتهم وعاداتهم . وكانت كل قبيلة تنقسم ، ولا تزال ، الى عشائر ، تتفاوت اعدادها طبقا لحجمهما ووضعها الاجتماعى .

بيد أنه مهما يكن من كثرة الأقسام والفروع التى تكون فى كل عشيرة ، فإن أفرادها جميعا يعدون أنفسهم من دم واحد ، ويدينون بالولاء للقبيلة ، التى يستخدم صيحتها الحسرية المشتركة كل فرد فى القبيلة اثناء الاشتباك . ولعل أهمية رابطة الدم هذه تتمثل على أشدها بحقيقة ان أعضاء كل قبيلة ظلوا مهما طال الزمن يسمون أنفسهم (بنى) فلان ومن هنا جاءت تسمية بنى غسان فى فلسطين القديمة ، وبنى صخر فى الاردن فى الزمن الحديث . وبالمثل فان رجل القبيلة يشير الى رفاقه من رجال القبيلة بوصف بنى عمه ، فهم عنده اذن بمثابة أبناء الأعمام .

وكانت ممتلكات عربى الصحراء ضئيلة مثل غدائه اليومى . فما يمتلكه هو خيمته الخاصة وقليل من الإثاث البسيط مثل الأيسسطة وجلود الغنم . أما بصفة عامة فان الحيوانات والأغنام والماعز والأبل ، وهى التى تعيش بها قبيلته وتتنقل ، ملكية مشتركة ، وكافة

حقوق الرعى والآبار ملك للقبيلة غير قابل لى تحويل .
ولا مفر فى أرض كان المرعى والماء فيها عزيز المنال بصورة
بالغة ، أن تقع المنازعات كثيرا بين القبائل بصدد حقوق
الرعى واستخدام الآبار . وكما أن القبائل تعد بعضها
البعض هدفا مستباحا لسلب الابل والغنم والمعر ، فذلك
كانوا يقتتلون حول حق المرعى .

ولكن على الرغم من أن البسندو الرحل كانوا كثيرا
ما تدفعهم الضرورة الملحة ، وأحيانا الطمع بل حتى دوافع
اللهو العبث ، لسلوك مسلك قطاع الطرق لاستلاب كل
ما يمكنهم استلابه - فإنهم لم يكونوا مجردين من قواعد
صارمة معينة للسلوك خارج وداخل قبائلهم على السواء .
ومن هذا أنه كان مفروضا عند الاغارة على جار عدم سفك
الدماء الا فى حالة الضرورة القصوى . ومنه أيضا أن
القبيلة القوية كثيرا ما كانت تتولى حماية قبيلة أضعف
ضد الاغارة عليها من جانب طرف ثالث ، وأن كان هذا
لا يتم دون اقتضاء ثمن عيني من أجل الحماية . وأهم
من هذا كله هو أن قانون ضيافة الفسريب كان قانونا
مطلقا . كانت الضيافة عنصرا حيويا فى خلق ومسلك
البدوى ، وتتجلى أهمية هذا فى نص من الشعر العربى
القديم كثيرا ما كان يستخدم تحية للضيف القادم بما
يشعره أنه رغم وفادته فهو رب البيت ، وأصحابه هم
الضيوف .

أن صد الضيف الذى جاء ياتمس الطعام والمأوى كان
ايداؤه بعد حاوله ضيفا جريمة فى حق الشرف العربى .
بل أن أكل الطعام مع مضيفه يجعل الضيف فى مأمن من
العدوان عليه ، وبالمثل كان من عادة رؤساء القبائل أن
يهيئوا حرسا أو مرورا آمنا للمسافرين الذين يجتازون

مناطقهم ، وأى هجوم مباغت على مثل هذا المسافر المتمتع بالحماية فيه مساس بشرف القبيلة كلها . ولا أحد يعرف أكثر من البدوى المرتحل مخاطر الحياة الصحراوية وأسفارها وعذاب الظما ولظى الشمس المحترقة ومخاطر الهجوم من جانب قطاع الطرق - وهو في الواقع يعيش دائما مع الموت .

وقامت الثقافة في ظروف الصحراء الجسافية حيث تنحصر جهود كل انسان في مشكلة البقاء على قيد الحياة - ثقافة بدائية مكرسة للشئون العملية الصرفة مثل الصيد ، والقتال ، وركوب الخيل . ولم يكن في المدن والقرى كذلك سوى القليل من التعليم بمعناه الحقيقي . وعلى الأولاد حالما يتركون حجر أمهاتهم أن يتعلموا تجارة الاسرة أو حرفتها . لكن لم يكن معنى هذا أن كل عربى فى عهود الاسلام كان أميا تماما . اذ كان يوجد فى كل منطقة مستقرة كتاب وكذلك كان للقبيلة شعراء كانوا محل التوقير لجمال كلامهم وبلاغته وكان شاعر القبيلة كذلك قادرا على إثارة حماس القبيلة عند القتال . ثم ان اللغة العربية بايقاعها الجميل كان ولا يزال لها سحرها فى الهاب مشاعرا الجماهير ، ومن ثم كان حتى البدوى الامى يمكن أن يقضى ساعات فراغه يردد أو يستمع الى رفاقه من أبناء القبيلة يرددون الشعر أو يبدئون ويعيدون فى سرد حكايات وأساطير عن حياة الصحراء ظلت متواترة منذ أجيال مضت . وفى عالم خشن عملى محروم من أية ثقافة كانت اللغة العربية وقتئذها موضع فخر العربى . فان الرجل الكامل هو ذلك الذى يجمع بين براعات ثلاث هى البلاغة والرماية بالسهم والفروسية ، وكانت أعظم الثلاث هى البلاغة .

الفصل الثانى :

ظهور النبى (صلى الله عليه وسلم)

عند مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) عام ٥٧١ هـ كان جنوب البلاد العربية ولا سيما الحجاز مباءة للآثام وعبادة الأصنام . كانت مكة ، المدينة الرئيسية فى الحجاز ، والتي اشتق اسمها من كلمة بمعنى الحرم حرم بلغة أهل سبأ ، وقد أصبحت غنية كمحطة للقوافل على الطريق البرى من جنوب البلاد العربية ، ومركز للحج لسكل من يعبدون الأصنام على أى شأكة . وكانت السكبة تضم ما لا يقل على ثلاثمائة من الأصنام التى تلاثم كل ذوق . وكانت الخرافات منتشرة ، والجن محل خوف شديد . بل ان شفف العرب بالشمس كان قد انحط ، اذ انحدرت سوق عكاظ السنوية للشعر الى ما اسماء احد المؤرخين الاخباريين العرب (بملتقى الرذيلة لا يوصف) . وكانت ممارسات السكر والعريضة والفجور هى الطابع السائد عندما كان الحجيج ورجال القوافل فيختلط حابلهم بنابلهم فى تحلل بالغ من كل قيد . وفى احدى المناسبات حاول حكام اليمن الاحباش القيام بغزو الحجاز لوضع حد لهذه المبادئ الوثنية ، ولكن جبوشهم توقفت بسبب وباء نزل بها فى الطريق .

وكانت أكبر قبائل الحجاز في ذلك العصر قبيلة قريش، وهي القبيلة التي وطدت سلطانها بزعامة قصي بن كلاب سليل إبراهيم واسماعيل منذ عام ٤٤٠ ، وكانت قريش قبيلة ذات قوة وسلطان في مكة وما حولها . ولا يعرف إلا القليل عن أعمال قصي ، ولكنه شخصية بارزة وهو جد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وكل خلفاء المسلمين على مدار ستمائة عام بعد وفاة محمد كانوا من سلالة المباشرة . وكان أمية مؤسس الأمويين من أبناء أحفاده . ولذلك كان حفيده هاشم جدا للعباس ، الذي تسلسل عنه الخلفاء العباسيون . وكان هاشم أيضا ، سلفا للعويين والهاشميين المحدثين .

وكانت مختلف الرياسات في مكة عند نهاية القرن السادس مقسمة على أساس وراثي صرف بين الطائفتين الرئيسيتين - بنى هاشم وبنى عبد شمس - من قبيلة قريش . كان صاحب القابة أو صاحب النور المشرف على بشر زمزم هو العباس ، عم محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد توفي عبد الله أبو محمد قبل مولد ابنه بأشهر قلائل . وبسبب العوز الناشئ عن هذه الوفاة والمرض والتقاليد القبلية ، وتولت رعايته أمه آمنة بنت وهب رضي الله عنها . وجريا على عادة القرشيين في ذلك العصر بعثت آمنة بابنها محمد إلى منازل بنى بكر بن سعد لينشأ في الصحراء . وهكذا أمضى محمد السنوات الست الأولى من حياته في الصحراء . ثم توفيت أمه عقب إعادته إليها ، فكفله جده أولا ، ثم عمه أبو طالب . وكان أبو طالب يجمع بين دور التاجر وواجبات السيد العظيم الشأن ، وعندما بلغ محمد الثانية عشرة من عمره صحبه عمه في إحدى رحلات القوافل السنوية التي كان

يقوم بها الى الشام . وقد توقفت القافلة في طريقها عند أحد الأديرة الشامية ، حيث التقى محمد براهيم نصراني يدعى بهيرا عرف فيه علامة النبوة وهي شامة على كتفه . وعلى الرغم من أن محمدا كان أميا ، إلا أنه كان على قدر كبير من الذكاء وحب الاستطلاع والتأمل ، وقد نفر منذ صبوته من أسلوب الحياة في مكة القائم على عبادة الأصنام والفساد . ومن المحتمل أن عمه كان معطافا مع آراء ابن أخيه ولكنه أبقى نواياه طي الكتمان محافظة على مكانته ورعاية لمصالحه كتاجر .

وعندما بلغ محمد الخامسة والعشرين كان قد وصل الى مكان مرموق في المجتمع المكي . وكان متوسط الطول موفور الذكاء الى حد بالغ ، مهيب الطلعة ، كبير الرأس ، عريض الجبين ، أسود العينين ، له لحية سوداء كثة ، وبشرة بيضاء مشربة بحمرة . وكانت ابتسامته تنم عن العطف والمودة ، ولكنه قاما كان يضحك عاليا ، بالإضافة الى ما ظفر به من شهرة كتاجر أمين ، ثم عمل في تجارة سيدة غنية أسماها خديجة كانت تمارس التجارة أيضا ، مما أفضى بها الى الزواج من محمد .

ولكن في حين أن زواج محمد وحياته العملية كانا مقترنين بالسلام والسكينة ، فإن نفسه كانت تميل الى العزلة والتأمل وكان يلجأ الى غار حراء ويقضي فيه شهر رمضان من كل سنة . وبينما كان يتعبد في الغار يوما نزل عليه الوحي يحمله اليه جبريل وناداه يقول (اقرأ) فقال محمد (صلى الله عليه وسلم) ما أنا بقارئ وتكرر هذا ثلاث مرات ثم تلا جبريل قسوله تعالى (اقرأ باسم ربك الأعلى) الخ الآيات الخمس الأولى من سورة (العلق) فرددها محمد وهو خائف . ثم أسرع

الى بيته وهو يرتعد ويقول (زملونى ، زملونى) وأسرعت
اليه زوجته المخلصة خديجة بنت خويلد فزملته فى ثوب
ومضت تطمئنه حتى هدأت نفسه .

وايمانا منها بأنه ينطق الصدق فقد صحبته الى ابن
خالتها ورقة بن نوفل الذى يقال انه كان نصرانيا فطمأنه
ورقة وقال له ان هذا هو الناموس الذى أنزل على موسى
وخلال الأسابيع التالية عرف محمد (صلى الله عليه
وسلم) ان جبريل حمل اليه رسالة ربه فأصبح نبيا
رسولا ومضى ينشر رسالته ، وقصر دعوته طيلة العامين
التاليين على عشيرته الأقربين وقلة من أصحابه . فدخلت
خديجة فى الدين ، كما دخل على ابن عمه أبى طالب ،
الذى تزوج ابنته فاطمة فيما بعد . وكذلك أسلم أبو بكر
صديقه الحميم ، وعثمان ابن عفسان وهو ابن عم أبى
سفيان ، من بين أوائل انصاره المؤمنين القلائل . ولكن
أعمامه تراوخوا بين الحياد الكريم مثل أبى طالب وبين
العداوة المضطربة مثل أبى لهب .

ثم تلقى محمد من جبريل فى عام ٦١٢ الدعوة الى
المجاهرة برسالة ربه وتوجيهها الى الناس كافة وخاصة
لقريش . وسمى دينه (الاسلام) (ومعناه التسليم لله) ،
وسمى أتباعه المسلمين ، وأعلن الى أهل مكة ان الله
هو الواحد القادر الخالق للكون ، وان يوم الحساب آت
يوم يهلك الكفار فى نار جهنم ويتعم المؤمنون بالجنة
خالدين فيها . وقد قوبلت دعوته بالضحك والسخرية ،
وقال له الدهماء ان كنت نبيا فأت بمعجزات مثل موسى
وعيسى . فلما جاوبهم بأن كلمة الله هى المعجزة الكبرى
قابلوه بالضحك الصاخب .

ورغم ذلك فان ظهور محمد لأول مرة اكسبه نواة

صغيرة من المسلمين ، وأدرك بنو عبد شمس من قريش أنهم آزاء خطر محتمل يهددهم ويهدد أسلوب حياتهم . وشعر زعيمهم أبو سفيان بغيرة مريرة من الهاشميين ، ورأى في خروج محمد على عقيدتهم تحديا لما يحرصون عليه . ومع ذلك فخشية من إثارة حزازات دموية لم يجسر الكفار على قتله . وبدلا من ذلك حاولوا اغراءه بالمال لترك دعوته . ولما أخفقوا في هذا حاولوا تهديد أبي طالب وغيره من أسرته . وأخيرا أخذوا يضايقون محمدا بعدوانهم المتكرر ومحاولة ابدائه في كل مكان ، فكانوا يفضون اجتماعاته ويعذبون تابعيه . فخرج محمد الى الطائف ، أملا في دخول أهلها في الاسلام ولكنه لم يوفق . وفي عام ٦١٥ اضطر الى أن يرسل أتباعه المائة أو نحو ذلك لالتماس الملجأ عند نجاشي الحبشة النصراني ، وبقي هو مع فئة قليلة من أصحابه في مكة .

وعندما أخفق الكفار في حمل نجاشي الحبشة على تسليمهم أتباع محمد انقلبوا على الهاشميين في الحجاز وسلطوا عليهم سلاح المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية لاجبارهم على تسليم النبي اليهم . وظلوا الهاشميون مدى ثلاث سنوات وهم لا يستطيعون أن يشتروا أو يبيعوا شيئا ، ولكنهم صمدوا رغم تعرضهم للجوع والهلاك ، وفي النهاية ألقى أبو سفيان سلاحه . ولم يشذ من أسرة محمد سوى أبي لهب الذي انضم الى الكفار ، وبلغ به الحنق حدا جعله يأمر ابنه بتطبيق رقية ابنة محمد ، وقد تزوجت بعد ذلك عثمان بن عفان ، الذي قدر له فيما بعد أن يصبح أحد الخلفاء الأوائل الذين خلفوا النبي .

وفي عام ٦١٧ توفيت السيدة خديجة ولحق بهما

أبو طالب على الأثر . وفى نفس الوقت دخل فى الإسلام واحد من أبرز القرشيين هو عمر بن الخطاب . ثم أسرى به صلى الله عليه وسلم الى بيت المقدس ثم عرج الى السماء ، حيث رفع فى السموات السبع الى العرش ، وفى عروجه التقى بالأنبياء السابقين آدم ونوح وهارون وموسى وإبراهيم وعيسى ، وبعد ذلك بقليل لقي محمد جماعة من أهل يثرب التى تبعد حوالى ٢٧٠ ميلا الى الشمال من مكة ، قتلا عليهم القرآن ودعاهم الى الإسلام . وقد تأثروا كثيرا بما قال لهم . ولما رجعوا الى قومهم أقنعوا أهل المدينة بأن محمدا هو الرسول الذى كانوا ينتظرونه ، وبعد فترة أقبلت من المدينة جماعة قوامها سبعون رجلا وامرأتان بايعوا محمدا عند العقبة وهناك دعوته الى الانتقال الى مدينتهم . وقد كان هذا أول نصر ضخم . فقبل الرسول الدعوة على الفور ، وأرسل واحدا من أصحابه وهو مصعب بن عمير مع مئة وخمسون من أتباعه لتمهيد الطريق . بعد عام من ذلك هاجر محمد (صلى الله عليه وسلم) الى المدينة على الرغم من تعقب المشركين له . ولكن العناية الإلهية أعمت أبصارهم ، ووصل محمد فى رفقة صاحبه أبى بكر الى يثرب فى سلام فى سبتمبر عام ٦٢٢ .

تلك هى قصة الهجرة ، كما سميت رحلة النبي (صلى الله عليه وسلم) . وتأكيدا بشأنها باعتبارها نقطة التحول فى مولد الإسلام ، اعترف بها بعد ذلك بجمعة عشر عاما ، عندما قرر عمر بن الخطيب وهو خليفة للمسلمين أن يكون عام ٦٢٢ هو عام الهجرة ، والبداية الرسمية للتاريخ الإسلامى .

وقد أقام محمد أول الأسر مع تابعيه الذين عا لبث

ان سماهم الأنصار ، فى ضاحية ليثرب ، حيث بنى أول مسجد . ثم انتقل بعد ذلك الى المدينة . وفى البقعة التى توقفت فيها ناقتة انشأ مسجده بالقرب من دار ابي أيوب الأنصارى . ولا شيء أوضح لبساطته أو مقته للترف أكثر من هذا البنيان البسيط الذى استخدم طيلة الأعوام الباقية من بعثته مكانا للعبادة والتعليم والراحة . كانت تحسوطه جدران من اللبن ، وتسند جذوع النخيل سقفه المتخذ من السعف . وكان المسكن ذاته مزودا بحصير من سعف النخيل كفراش وبأبريق من الفخار . ولم يكن بالمسجد منبر ، فكان النبى يلقى خطبه متكئا على جذع نخلة ، فيتكلم بتؤدة وأناة ، رافعا بصره الى السماء . وكان رسول الله يعيش عيشة البساطة المتناهية ، كذلك الأنصار الذين وطدوا روابط الأخوة بينهم وبين المهاجرين الوافدين اليهم من مكة ، فأووهم فى بيوتهم ، وقاسموهم أموالهم ، وهى عادة بقيت حتى اليوم فى المدينة المقدسة .

وقد طرأ على حياة محمد الآن تغيير أساسى . فلم يعد الامام الهادى والرسول المعلم فحسب بل أصبح الآن رائدا لأهل المدينة لجماعة المسلمين فى يثرب وهم الأوس والخزرج - لاقرار العدالة والحكم الصالح . واستجابة لهذه المهام الجديدة ، عقد معاهدة تحالف مع اليهود تعهد اليهود والمسلمون بمقتضاها الا يضايق أى فريق منهم الآخر وأن يدافعوا عن المدينة ضد أى عدوان . وقد جعل محمد من بيت المقدس قبلة يولى المسلمون وجوههم شطرها فى الصلاة ، وقضى بأن اراقة الدماء جريمة ضد الله . كما غير اسم يثرب الى مدينة نبى الله . وأمر جميع المسلمين الصادقين بالصيام فيما

بين الفجر وغروب الشمس شهرا كل سنة ، وهو شهر
رمضان ، والامتناع عن لعب الميسر وشرب الخمر ،
وتحطيم كافة الصور المحفورة ، والصلاة خمس مرات كل
يوم ، وأن يرجعوا اذا رايهم أمر من الأمور الى الله
ورسوله والا يستنبثوا القداح وغيرها من الوسائل التي
يمارسها العرافون .

بيد أن العهد الذي عقده مع اليهود في المدينة لم يدم
طويلا . فسرعان ما غدر بعض اليهود بالمسلمين وتآمروا
عليهم ، اذا بهم أحسوا أن ما نادى به الاسلام من المساواة
بين البشر يهدد ثروتهم ، وأن رأى كثيرون منهم أن من
الحكمة أن يتظاهروا بالولاء . وتمكنت الفيرة عبد الله بن
أبي من تزايد نفوذ محمد بين أهل المدينة . مع أنه قد
تظاهر بالاسلام نفاقا والتف حوله نفر آخر من المنافقين .
وبدا الفريقان في التآمر مع الكفار في مكة . وفي هذا
الوقت نزل الوحي على محمد مرتين في تلاحق سريع .
الأولى حين أمره الله بتحويل القبلة من بيت المقدس الى
الكعبة ، ثم نزلت بعد ذلك آية القتال فعزم الرسول
على قتال المشركين وكل من يعادى الاسلام .

وبدا محمد صراعه مع أهل مكة الكفار بمهاجمة قوافلهم
وفي السنة الثانية للهجرة دعا رسول الله (ص)
المسلمين الى اعتراض قافلة مكية محملة بالنفائس وقد
قدر ما فيها من التجارة بخمسين ألف دينار من الذهب
وكان يقودها أبو سفيان وعندما بلغ قريش الخبر ، خرج
منها ألف رجل للقتال . ولم يكن في جيش محمد أكثر
من ثلاثمائة من الرجال إلا ساء والتقت القوتان
المتضادتان في بدر قرب المدينة . وقد بدأ القتال بمبارزة
بين ثلاثة من الكفار ضد ثلاثة آخرين من المسلمين طبقا

لتقاليد الحرب . وكانت هذه البداية التمهيدية في صالح المسلمين ، وعندما خسر المحاربون الثلاثة المكيون صرعى نشبت المعركة بين الجيشين . وبين صيحات التشجيع من نساء العدو القى الكفار بأنفسهم على جيش المسلمين الصغير ، بيد أن المسلمين كانوا يتميزون على خصومهم بإيمان دافق ورغبة صادقة في الاستشهاد وأمدتهم الله بنصر من عنده فلم يلبثوا أن هزموا الكفار على كثرة عددهم وزاد حماسهم عندما سمعوا رسول الله (ص) يقول « لا يقاتلهم اليوم رجل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة »

ومئيت قریش بهزيمة ساحقة . وفي العام التالي ٦٢٥ دارت معركة أحد التي تعادلت فيها الموازين . كانت عدة جيش قریش ثلاثة آلاف رجل . وقد قاموا بمناورة للتغلب على جيش عبد الله بن أبي الأنسحاب من الميدان على رأس ثلاثمائة من المنافقين ولكن ذلك لم يشبط عزيمة المسلمين . وكان الرسول (ص) قد أمر عبد الله بن جبير قائد الرماة بأن يظل مع رجاله على نشر من الأرض لحماية المسلمين من فرسان قریش . ولكن الرماة خالفوا أمر الرسول فانقض خالد بن الوليد بفرسانه على المسلمين وأصاب منهم مقتلة كبيرة وعلى أثر ذلك ثبت الرسول (ص) ونادى المسلمين فتجمعوا حوله مرة أخرى وتمكنوا من إفساد خطة أبي سفيان . وانتهى الأمر بانسحاب المشركين دون أن ينالوا من المسلمين منالا .

وكان الكفار قد تمكنوا في هذه المعركة من قتل نفر كبير من كبار المسلمين ، فحسب الناس أن المعركة كانت هزيمة للمديثة . وسرعان ما نشطت المؤامرات ضد أمة الإسلام

فى المدينة ولكن المسلمين انتصروا على اعدائهم فى كل لقاء .

والواقع ان أسلوب محمد (ص) فى الاحتفاظ بقوته والمبادرة الى لقاء الأعداء فى كل مناسبة برهنت على الحكمة . فبعد عامين زحف أبو سفيان على المدينة على رأس عشرة آلاف مقاتل فى محاولة للأجهاز عليه مرة وإلى الأبد . ولكن النبى عمل بمشورة سلمان الفارسي ، على تقوية دفاعات المدينة بخفر خندق من حولها ، واضطر أبو سفيان الى مواجهة حصار طويل . فاشتدت وطأة البرد على المحاصرين ونالت من حماسهم ، واقترن هذا بهبوب عاصفة عاتية ، ونشاط دعاية ذكية من جانب عيون المسلمين . فادت هذه العوامل جميعا الى تفكك فى صفوف العدو ، وهكذا خارت عزائمهم ، وانقلبت قريش عائدة الى ديارها .

وعقب انصراف المشركين وهم الأحزاب عن المدينة تبين محمد ان الوقت قد حان لادخال مكة فى الاسلام ولكنه رأى قبل ذلك ان يقضى على كل قوة لليهود فى المدينة نظرا لنياتهم المنكرة وتآمرهم على أمة الاسلام ، وهكذا تم القضاء على جماعات اليهود الكبرى فى المدينة وأمن المسلمين على أنفسهم من غدر اليهود .

وكانت خطة محمد أول الأمر هى أخذ مكة سلما ، ولكن عندما أرسلت قريش خالد بن الوليد مع قوة كبيرة لاستباقه ، انحاز محمد الى الدبلوماسية ، ووافد عثمان زوج ابنته للتفاوض مع أبى سفيان . وقد تم الاتفاق على عقد هدنة تسمح للمسلمين بدخول مكة ، لكن ليس قبل العام التالى ، ولمدة ثلاثة أيام فقط ، وبدون أسلحة . وفضلا عن ذلك كان يتعين اذا ابقى واحد من

قريش الى صفوف المسلمين .

وبعد أن فتح رسول الله خيبر وكانت معقلا من معاقل اليهود ، واطمان من كل خطر يأتى من الشمال أرسل بكتبه الى مآوله عصره يدعوهم الى الاسلام ثم تم له فتح مكة في رمضان من العام الثامن للهجرة .

وعندما دخل مكة عفا عمن كانوا يضطهدونه ، وسارع زعماء قريش الى الدخول في الاسلام . وقد عرف محمد بخصافته وذكائه كيف يستألف قلوب أولئك الكفار . فدخلوا في دين الله . وقد تجلت هذه الصفات على أوضحها فيما أصدر من أوامر بصدد الكعبة والحج . فبينما حقق حرفيا النبوة القديمة بأن واحدا من نسل ابراهيم سوف يظهر يوما بيت الله في مكة بتحطيم أو ازالة كل أصنام قريش وتحريم كل صور أو تماثيل على هيئة البشر باعتبارها من الوثنية ، فقد أبقي الكعبة قبلة الحج ، والطواف سبع مرات حول الكعبة .

وبعد فتح مكة أخذت جماعات المسلمين تتزايد بالأوف ، وأصبح محمد قادرا على قبول جميع المنضوين تحت لواء الاسلام .

ولكن في الوقت الذي كان فيه الاسلام يتوطد سلطانه على هذه الصورة ، بدت على النبي أعراض المرض . وفي عام ٣٦٢ حج حجة الوداع التي قال فيها : « يا أيها الناس بلغوا مني السلام » . وبعد أيام قلائل من عودته الى المدينة فاضت روحه الطاهرة . وقد انقضت فترة لم يصدق فيها الناس الخبر ، وتوعد عمر أن يضرب بسيفه كل من يقول أن النبي قد مات . ولكن أبا بكر قال لغير المصدقين : « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ،

ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت » . ثم تلا الآية :
« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان
مات او قتل انقلبتم على اعقابكم » . فأقنعهم كلام ابن
بكر ، ثم اختار المسلمون ابا بكر خلفا للرسول (صلى
الله عليه وسلم) .

والسؤال الآن هو : كيف استطاع رجل واحد ان يقود
هذه الكثرة الهائلة من تابعيه لكي ينبذوا حياتهم القائمة
على عبادة الاصنام والمملذات ، مؤثرين عليها حياة صارمة
وعرة قوامها الايمان الخالص ؟ من المؤكد ان السبب لم
يكن هو عراقية المنبت ، لان كثيرين في معسكر قريش
المضاد كانوا كذلك من ذوى الحسب ، وكانوا اوفر نفوذا
وسلطانا في مكة والحجاز . ولا كان السبب هو هالة
النجاح التى حفت به على طريق الظفر والانتصار . انما
الجواب واحد : هو الاسلام ، بما قام عليه من اعلان
صريح للتوحيد ، ولما انطوت عليه رسالته الروحية من
دعوة الى العدل الاجتماعى ، وهى دعوة مست بصفة
خاصة قلوب السيسواد الاعظم فى الحجاز ممن كانوا
مستضعفين فى الارض . وكانت دعوة الاسلام هى الحافز
الاكبر وراء الفتوحات العربية الكبرى التى اعقبت وفاة
النبي . وهكذا غيرت دعوة محمد بلاد العرب ، وحولت
العرب انفسهم فى الشطر الاكبر من شبه الجزيرة
الى امة متحدة منظمة قادرة على الدفاع عن وطنها الام
وتوسيع حدودها ، كما تجلى فى الاحداث التالية ، الى
اقاصى الارض . ومن خلال القواعد الدينية للعقيدة
غرس فى نفوس الطبقات الحاكمة فى الحجاز احساسا
جديدا بالمسئولية حيال رعاياها ، وهيا للجماهير
المحرومة قاعدة جديدة للعدالة الاجتماعية .

ولعل أشد ما يستأثر بلب دارس التاريخ العربى من غير المسلمين انمسا هو ما طبع عليه محمد من صفات الانسانية . كان أكثر الناس فهما للقصور البشرى ، ومن ثم كان أرحم الناس بالناس . وكان عزوفا عن متاع الحياة ، وعند وفاته لم يترك سوى درع وقميص وعمامة وثوب مرقع وقسربة وحشية من سبسف النخيل . وكان نصيبه من القنائم وهو الخمس ينفق كله فى سبيل الاسلام .

وثقت كان آية فى الرحمة حتى للعدو المنهزم ، وأروع ما تجلى ذلك فى مكة والطائف ، حين أقرت قريش بهزيمتها وأصبحت اخوة له فى الاسلام .

هذا هو محمد اذن - الانسان العادى الذى اختاره الله رسولا وخاتما للنبيين ، والذى أحس منذ صباه انه مدعو لتغيير العالم الشرير الفاسد الذى كان يعيش فيه ، والذى أدت رسالة الاسلام التى بعثه الله بها الى توحيد العرب فى عقيدة دينية قوامها الايمان بالله الواحد الاحد ، والذى أظفره الله على الأنانية والخرافة والجهالة ، ومكن لدعوته الخالدة أن تستأثر بقلوب مئات الملايين فى كافة الأقطار والأمصار .

الفصل الثالث :

بدايات الإمبراطورية

بوفاة محمد عاد العرب الى انماط حياتهم القديمة المتباعدة عن التمرکز ، والمحيطة بالاستقلال القبلى ، والمتجافية عن كل سلطة مركزية ، ومن القبائل ما كره الانظمة الجديدة التى استهدفت تغيير البنيان الاجتماعى وما جاء به الاسلام من خطر للحروب فيما بين المسلمين ، مما عدوه تهديدا لرياضتهم الاثيرة المشرفة على مدى الاجيال وهى التناحر القبلى المتوارث . ونتيجة لهذا ولغيره من العوامل ، فانه عندما أصبح محمد غير مائل بينهم لى يفرض رسالته بقسوة شخصيته ، بدأت القبائل فى وسط وشرق البلاد العربية تنضو عنها لواء الاسلام وتطرد الولاة الموكلين بأمرهم .

قلنا ان ابا بكر انتخب خليفة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وقد اثبت ابو بكر انه اهل للمسئولية التى تولاها وقضى على حركة الردة . واستفاضة شهرة ابي بكر فى المشورة العادلة المنصفة والرأى المجرد عن الهوى الى حد انه ما أن حلت هذه الحجج محلها فى النفس واستوعبتها .

وتوفى أبو بكر بعد عامين وخلفه عمر بن الخطاب . بيد اننا ابا بكر على الرغم من كل وداعته ورقته كان بعيد النظر

بحيث أدرك أن أساليب القفاز الناعم لن تكون كافية لرد القبائل الى حظيرة الاسلام أو لدحر الادعياء في شرق البلاد . فان هؤلاء المتمردين على كل قوة مركزية كانوا يتطلبون اجراءات اشد صرامة للسيطرة عليهم ، وهكذا اتجه أبو بكر الى الجندي الذي طبع اثره قويا في نفوس المسلمين ، وهو خالد بن الوليد ، وارسله للتعامل مع هؤلاء الادعياء .

لقد كان خالد ، كما بدا منه حتى الآن ، قائدا ممتازا ومخططا ضليعا في التكتيك ، مع شجاعة لا تعرف الخوف وسداد تفكير ورباطة جأش بالفين في اشد المعارك استعارا . ولم يتردد في القضاء على مقياسوميه بنفس الاسلوب الذي اتبعوه في قتل المسلمين . ولكنه مع ذلك وضع حدودا واضحة في معاملة اسرى الكفار ، قالدين دخلوا في الدين عفا عنهم ، والذين اصروا على الكفر كان نصيبهم الردى .

ولقد أعطى أبو بكر قائده الفد جيشا قوامه زهرة رجال مكة والمدينة ، واستطاع خالد في غضون ستة أشهر أن يهزم اثنين من الادعياء في شرقي بلاد العرب وأن يسحق من معهم من الخلفاء المتمردين . وقد لقي مقاومة عنيفة من قبيلتين ، وعلى الأخص من بني حنيفة الذين ضيقوا الخناق على المسلمين . ولكن خالدا الذي لم تفارقه رباطة جأشه في أي وقت استقر رجاله وقسمهم فريقين سواء من رجال القبائل أو من أبناء المدن يقصد إثارة المنافسة والحمية بينهم في هجومهم المضاد ، ثم تقدم بجيشه

لقد تم الآن للاسلام اخضاع شبه الجزيرة العربية كلها ، وتحويلها الى قاعدة منيعة لنشر الاسلام فقد

أصبح العرب الآن في موقف يسمح لهم بالزحف إلى ميادين جديدة . وبدأ أن الشام وفلسطين والعراق هي أقرب وأسهل منحنى للأنظار . فقد كان لهذه الاقطار الثلاثة أكبر أهمية استراتيجية واقتصادية ، وكان بوسع من يستحوذ عليها أن يسيطر على المنافذ المؤدية إلى آسيا الصغرى وإلى مصر وفارس . وقد وجد سكان الصحراء الفاتحون في مدائنهم الجميلة ومراعيها الخصبة مغنا ابن مقيم . فضلا عن ذلك فإن الامبراطوريتين اللتين كانتا تحكمان هذه الاقطار وهما بيزنطة وفارس كانتا قد تحاربتا في العهد الأخير إلى حد انتهى به الموقف إلى الجمود بعد أن دامت بينهما الحروب مدى ستة وعشرين عاما في صراع طويل بين هاتين القوتين المتنافستين . وكانت فارس قد استتبت لها الغلبة أول الأمر عندما استولت عام ٦١٤ على بيت المقدس وانتزعتها من امبراطور القسطنطينية المسيحية . ولكن بحلول عام ٦٢٨ استطاع البيزنطيون طرد الفرس من فلسطين والشام ، وأوقفوهم فيما وراء نهر الفرات في العراق (أو كلدنيا كما كانت تسمى وقتئذ) .

أن هذه الحروب قد استنفدت طاقة الغالب ، والمغلوب معا . وانتهت بيزنطة إلى الافلاس ، واضطرت اقتصادا في النفقات إلى الأخذ بسياسة غير محببة وهي قطع معونتها الامبراطورية عن قبائل الحدود المجاورة . كما أن حالة الفوضى سادت بلاد الفرس ، حيث ترتب على هزيمة البلاد قتل خسرو بيد أحد أبنائه بالإضافة إلى غيره من الذكور من الأسرة المالكة . وقد لقي قاتل الأب مصرعه اغتيالا . وتداول على العرش تسعة آخرون من المطالبين فكان مصيرهم القتل هم أيضا أو الإقصاء عن العرش . وكان آخر المنصبين على العرش أميرا في

الخامسة عشر من عمره يلعب يزدجرد كتب له أن ينجو من الإبادة . وإلى جانب هذا ككله فإن الحكام البيزنطيين والفرس كانوا قد أثاروا خصومة الفسائيين واللخميين لأسباب دينية كما أثاروا عاصفة من العداء في الشام والعراق بإلغاء الأسر العربية المحلية الحاكمة وفرض حكام مباشرين من قبلهم . وهكذا فإن من المحتمل ، وقد بدت المغامرات جزيلة بالاستيلاء على هذه الأقاليم ، أن يتجه العرب اثر انتصاراتهم الحديثة في شبه الجزيرة العربية الى هذه البلاد ، وأن يعمدوا الى اغتنام هذه المزايا المتساحة لهم في أراضي الامبراطوريتين المنهكتين في الشمال .

ولقد كان العرب منذ بداية صراعهم ضد الفرس والبيزنطيين يحظون بالميزة التي تحظى بها في العصور الحديثة الأمم ذات السيطرة البحرية . وفي هذا الصدد كان البحر هو الصحراء . وفي حين كان العرب يستمتعون بقدرة كاملة للحركة في الصحراء وهي مجالهم الذي نشأوا فيه ، كان الفرس والروم عاجزين عن التحرك في الصحراء عجزا تاما . فمن ناحية كان العرب يستخدمون الجمال ، في حين كان خصومهم يركبون الخيل التي كانت قوة احتمالها في الظروف الصحراوية عند حدها الأدنى . ومن ناحية أخرى فإن إلغاء الأسر العربية الحاكمة في الشام والعراق كلف الروم والفرس فقدان معظم جنودهم العاملين في الصحراء بعد سحب القبائل تعاونها ومساعداتها احتجاجا على القضاء على البقعة البقية الباقية من الحكم الذاتي العربي .

وكذلك سجل العرب برغم التفوق الفني لجيوش خصومهم انتصارات رائعة على أعظم امبراطوريتين في

تلك اليهود . واستطاعت جيوش المسلمين أن تفت من عزائم الروم والفرس وأن تلقى في قلوبهم الرعب إلى حد جعل مدائنهم وبلدانهم المحصنة تستسلم واحدة تلو الأخرى . وبهذا أثبتوا للعالم ما يمكن أن يحققه الإيمان الخالص والاستبسال الفائق ضد القوى المتفوقة عددا وعدة .

وعلى الرغم من أن الهجوم العربي الرئيسي كان مقبلا أن يوجه ضد الشام وفلسطين ، فقد وقع الاختيار على العراق لتكون الهدف الأول لجيوش الخليفة : من ناحية لكونها أقرب إلى أراضي المسلمين ومن ناحية أخرى لأن حالة الفوضى السائدة في ممتلكات الإمبراطور الفارسي جعله يبدو في نظر العرب خصما أضعف من نظيره الإمبراطور البيزنطي . وقد عين خالد قائدا للحملة التي اتجهت إلى العراق في مارس من عام ٦٣٣ . ولدى اقترابه من الأراضي الفارسية وإفاه أول بشير يوشك أن يصاحبه من نجاح ، وذلك عندما انضمت إليه تقريبا مها يعرف الآن بالحدود بين العراق والكويت قبيلة بني بكر تحت قيادة زعيمها المحارب الموهوب المثني بن حارثة . وعلى الرغم من أن بني بكر كان منهم مسيحيون ، إلا أنهم كانوا في حالة تمرد سافر ضد الفرس منذ الغاء الأسيرة الحساسة اللخمية في العراق ، وهكذا فإنهم سارعوا الآن إلى اعتناق دين الفاتحين المسلمين .

وقد تضاعفت قوة خالد ثلاثة أضعاف بهذه اللقبة التي هبطت عليه ، وعندما تقدمت جيوش المسلمين في اتجاه وادي الفرات ، دعا هرمز الحاكم الفارسي في دلتا نهر الدجلة والفرات لاعتناق الإسلام أو مواجهة الهزيمة والموت . فما كان من هرمز الذي استخف كثيرا بجيش

المسلمين الا أن تقدم للاقائه . وطبقا للقاعدة المرعية فقد تحدى خالدا لمنازلته قبل نشوب المعركة العامة ، ولكن خالدا أجهز عليه في أسر ، ودحر جيش الفرس المشدوهين وطاردهم حتي أبواب مدينة طيسفون ذاتها .

ولم يلبث الفرس أن قرروا مقاومة العرب بالعرب . فشكّلوا جيشا من الفرس والعرب المسيحيين تقدم لدفع الغزاة . ولكنهم كانوا قاصرين ازاء عبقرية القائد المسلم في القيادة والمناورة . لقد جمعوا جيوشهم وقاموا بالهجوم ، وكادوا ينتصرون عندما تبخلت عن خالد لأول مرة رباطة جأشه في المعركة ، فنذر اذا جاء النصر من عند الله أن يحيل دماء جيش العدو الى نهر قرمزي . وعندما تضعف الفرس في النهاية وانهاروا طوق خالد الأسرى وحز رقاب كتائب بأسرها منهم في قاع قناة جافة بزا بندره .

وعندئذ استأنف خالد تقدمه الى داخل العراق . وهما بمشورة معاونه ومساعدته الأول المشي بن حارثة بأن « تقاتل العدو في الصحراء حيث ينعقد لك النصر ، والا فان هزمت وجدت الصحراء المعهودة والصديقة عند ظهرك » . فقد راح خالد يناور بقواته كأنها أسطول بحري يلم بسفنه على مبعدة من الشاطئ على امتداد سواحل العدو ثم يوجه حين يشاء ضربات خاطفة الى الداخل بسرعة وخفة حركة . وكانت مدينة الحيرة هي هدفه التالي ، وبعد حصار قصير الأمد قبل سكانها الذين كانت غالبيتهم من العرب شروط التسليم وهي منحهم حرية العبادة في مقابل أداء الجزية وتعهد المسلمين بحماية المدينة . وكان لهذا الترفق من جانب خالد ما يبرره ، اذ كانت الحيرة مدينة قوية التحصين وذات

قدرة على المقاومة العنيدة ، وكان خائدا بحاجة اليها لتكون قاعدة لجيشه الذي لم يكن فقط في قلب اراضي العدو ، ولكنه كان كذلك بعيدا عن ارض الوطن بنحو الف ميل وليس بينه وبين الهجاز سوى الصحراء المترامية . وقد تجلت مخاطر هذا البعد السحيق بخطوط المواصلات عقب الاستيلاء على الحيرة ، عندما تعرض جيش ثان ارسل لشد ازر خالد الى مضايقات شديدة من بعض القبائل المسيحية لدى دخوله العراق ، ولم يخلصه سوى اولئك الذين قدم هسدا الجيش الاضافي لتعزيزهم .

وقد وجد خالد بعد عودته الى الحيرة ، اثر هذا التحول الطارىء ان الفرس قد استجمعوا قواهم وتاهبوا بهجوم جديد بالاشتراك مع حلفائهم العرب المسيحيين في تجمع اكبر من كل ما مضى . فقرر أن يستخدم خطة جديدة ويهاجم عدوه ليلا . فما ان أخذ الفرس على غرة حتى لاذوا بالفرار مدعورين . وتهيأ الآن لخسالد أن يغامر بالتقدم من جديد التماسا لفتوحات أخرى ، تاركا جيشه العربي الثاني للاشراف على قاعدته . فتقدم في وادي الفرات حتى بلغ فيراد التي تبعد ثلاثمائة ميل عن الحيرة قبل ان يصادف أية مقاومة جدية . وكان النهسر عند هذه النقطة يمثل الحد الفاصل بين الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية ، ولأول مرة اتحدت أهداف هاتين الامبراطوريتين المتنافستين عندما تحدت حاميتهما الحدود من الروم وانفرس خالدا أن يعبر النهسر ويتقدم لمهاجمتها ، فتحداهما خالدا أن يفعلا ، وعندما عبرت القوة المشتركة نهر الفرات ظفر خالد بانتصار جديد ، وعينه الخليفة ، واليا على العراق ابتهاجا بهذا الانجاز .

وفي خلال ذلك كانت الاستعدادات في الحجاز جارية بنشاط لفتح فلسطين التي كانت وقتها من الناحية الادارية جزءا من الشام واقصى اقليم في طرفها الجنوبي . وقد حشدت لهذا الغرض قوة قوامها اربعة وعشرون الفا وضمت تحت القيادة العليا لابي عبيدة الذي كان احد المدافعين الرئيسيين عن خلافة ابو بكر للرسول . وقد قسمت القوة الى اربعة ألوية ، اولها بقيادة عمرو بن العاص لفرو فلسطين بطريق العقبة ، والثاني بقيادة يزيد بن ابي سفيان والوالي على نجد والحجاز ، وكان عليه ان يزحف على دمشق ، وكان اللوائين الباقيين ان يكونا بمثابة قوة احتياطية . وكان كل لواء يضم مقاتلين أشداء مدربين تماما من أبناء المدينة ومكة ، وبينهم مائة ممن بقي على قيد الحياة من الثلاثمائة (الصحابين) المشهورين الذين هزموا أبو سفيان في غزوة بدر . وهكذا لم يكن ثمة أدنى شك في اقتدارهم أو شجاعتهم ، لكن لثلا تطفئ فورة حماسهم على حكمتهم ، فقد زودهم الخليفة أبو بكر قبل الزحف بتوجيهات محددة ذكرهم فيها بمسئوليتهم كحملة راية الاسلام في اراضي الاجانب والكفار ، وشدد عليهم باحترام النساء والأطفال والشيوخ وعدم سلب المحاصيل أو الماشية أو الابل ، والا يلجأوا الى الخداع أو الخيانة أو السرقة ، وأن يراعوا ويقيموا الحكم الصالح بين كافة الشعوب التي يفتحونها .

وكما حدث في العراق فان غزو المسلمين لفلسطين قد ساعد عليه ما كان هناك من سخط سائد بين القبائل ضد حكامهم . وقد سار كل شيء على ما يرام في اول الامر ، واستطاع عمرو باستخدام التكتيك الذي اتبعه خالد بنجاح ضد الفرس أن يفوز في اشتباكين خاطفين ضد

الروم قرب العقبة وغزة . ولكنه عندما واصل هو ويزيد
الزحف شمالا اخذت مقاومة البيزنطيين تشتد . ثم وجدوا
نفسيهما عاجزين عن التقدم وواجهها خطير قطع طريق
العودة عندما تخلى حاكم دومة العربى ، وهى فى مؤخرة
جيوش المسلمين وفى منتصف الطريق بين فلسطين
والعراق ، عن ولائه للإسلام . وحين بلغ نيا هذه
المحنة مسامع الخليفة امر (سيف الله) بالسيارة الى
نجدتهما . فخلف خالد على رأس تسعة آلاف رجل وشق
طريقا طوله ألف ميل عبر فيالى ومجسباهل الصحراء
الشامية الكبرى وسحق شيخ دومة المرتد ، وبعد انضمامه
الى جيش عمرو عند اجنادين قرب بيت المقدس فى شهر
يوليو من عام ٦٣٤ ، استطاع أن يدحر جيشا مشتركاً من
الروم ورجال القبائل المسيحيين ناهز المائة ألف رجل .

اصبحت فلسطين كلها الآن مفتوحة امام الفرس
الاسلامى ، ولكن جيوشهم فى الشرق تعرضت لضغط
شديد بسبب نقص قوة الجند وخاصة فى العراق بعد أن
سحب خالد نخبة الجيش لتعزيز عمرو فى فلسطين ،
وتلك بسبب حظر أبى بكر لانخراط القبائل المرتدة عن
الاسلام اثر وفاة النبى فى صفوف جيش المسلمين . وقد
انتهر الفرس هذا الموقف وشنوا هجوما مضادا فى أكتوبر
عام ٦٣٤ استعانوا فيه بالفيلة لالقضاء العرب فى نفوس
العرب مما هيا للقائد الفارسى رستم أن يتغلب على المشنى
ابن حارثة نائب القائد وأن يطرد جيشه الى خارج وادى
الفرات بعد مجزرة رهيبة . وقد ادى هذا الى رفع الحظر
عن رجال القبائل المرتدة ، وبهذه التعزيزات القوية الوافدة
من الحجاز تهيأ للمثنى أن ينال انتقامه فى العام التالى
عند (البويب) قرب الحيرة ، ومرة أخرى رد الفرس
واقفهم عند ابواب طيسفون .

وفي هذه الأثناء كان خالد في الشام يشدد الضغط زحفاً إلى دمشق الواقعة في سهل خصيب والتي كان استيلاء جيوش الإسلام عليها يمثل غنيمة كبرى . وقد استطاع خالد بضم قوات أبي عبيدة الزاخفة من فلسطين إلى قواته بلوغ هدفه في شهر مارس من عام ٦٣٥ . وبعد حصار دام ستة أشهر ، وبمساعدة من بعض رجال الحامية الساخطين ، فتحت دمشق أبوابها ، واستسلم حاكمها البيزنطي .

وعملاً بتوجيهات أبي بكر لجنوده عند الزحف ، كانت شروط الاستسلام ، التي قدر أن تصبح نموذجاً يحتذى في فتوحات الإسلام التيسالية ، بالغة الرفق بالنسبة للسكان . فقد أمنهم خالد على حياتهم وممتلكاتهم وكنائسهم ، ووعد بالبقاء على سور مدينتهم ، وبعدم إيذاء أحد بين المسلمين في بيوتهم ، وطالما أدوا الجزية فلن ينالهم إلا الخير .

كان ذلك في الحق جهداً بارعاً للتيسالمة ، بالتأكيد على المزايا والاعفاءات التي سيهيئها الفتح الإسلامي في مقابل أداء الجزية ، وينفي أية دلالة على أن غير المسلمين وغير العرب سيعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية . والواقع أن هذا الإعلان لم يحقق فقط الغاية منه وهي تسليم دمشق للقاتحين المسلمين ، بل أن ما قام عليه من موادعة وتيسامح كان له كذلك أعظم الأثر في نفوس القبائل المسيحية في الشام ، إلى حد أن جيوش العرب وجدت أصدقاء جدداً لها في كافة أرجاء الإقليم . وكان مقدراً أن تؤتي هذه المصادقة ثمارها الجزيلة بأسرع مما كان خالد يتوقع . ذلك أنه بعد أن وأصل الزحف واستولى على حمص وبعبك ، تدفق جيش بيزنطي جديد

يتراوح بين مائة ومائتي ألف قادما من الاناضول واكتسح قوات الخليفة وردھا الى نهر اليرموك فى فلسطين . ورغبة فى بيان صدق نية المسلمين أعاد خالد وأبو عبيدة الجزية لأهل البلدان التى كانوا يجلون عنها باعتبارھا أن قواتهم لن تستطيع الوفاء بما التزمت به من حماية السكان . وهكذا كان المسلمون فى ارتدادهم يجدون رجال القبائل فى كل مكان على استعداد لمساعدتهم بالمؤن والضرى بكل مساعدة للروم .

وفى أغسطس عام ٦٣٦ توقف خالد عند ملتقى نهر اليرموك بالأردن . وقد أبرزت المعركة التى تلت بعد ذلك عبقرية خالد فى التكتيك . فقد استغل الى أقصى حد هبوب عاصفة ترابية عنيفة وألقى بقواته الأقل عددا من قوات العدو على هذا العدو الذى أعمته العاصفة وأشاعت فى صفوفهم الفرع والفوضى والرعب . وفى هذه المعركة قاتل المسلمون كما لم يقاتلوا من قبل . وقد ظلت دائرة الرحى ثلاثة أيام الى أن أبيدت الجيوش المعادية من بكرة أبيها وقتل قائدها . ولم يعد لدى الامبراطور هرقل الذى جاء الى انطاكية للاشراف على المعركة التى كان يعلم انها ستتقرر مصير الشام الا أن ينسحب عائدا الى القسطنطينية .

هكذا خرج الاسلام من معقله الصحراوى . لقد فتح العرب العراق وفلسطين والشام . وغدت دمشق وبيروت وحمص وانطاكية وحلب وصيدا تحسبكم باسم الخليفة فى مكة .

وقد استدعى خالد الى المدينة بعد أن أعاد فتح دمشق وكان ذلك فى عهد عمر الذى تولى الخلافة عام ٦٣٤ بعد وفاة أبى بكر . وعين أبو عبيد واليا على الشام ، وعهد

الى عمرو بن العاص بالاستيلاء على بيت المقدس التي لم يفتحها العرب بعد دون كل فلسطين ، ولكنها الآن كانت ثمرة ناضجة ، ولم تلبث أن سقطت دون قتال في يناير من عام ٦٣٧ . وقد كانت شروط الاستسلام مطابقة لما كان في دمشق . ومرة أخرى عاهد المسيحيون على ألا يتعرضوا لآية مضايقة ، وأن تصان كنائسهم وصلبانهم . واستجابة لرجاء بطريق الروم المنهزم سوفرونيوس ، جاء عمر بشخصه لتوقيع المعاهدة ، وعلم الحشد المزدان بالملابس الفاخرة من القادة الاساقفة الذين كانوا في انتظار وصوله عند أبواب المدينة درسا في التواضع ، بقبول استسلامهم وهو في ثوب مرقع وعلى ظهر حمار .

واذا كان خالد قد أعفى بعد ذلك من قيادة جيوش المسلمين ، فلعل عمر أراد بهذا أن يجنب الناس في مكة وفي البلاد التي فتحها الاسلام حديثا مغبة الظن بأن الفضل في نجاح الجيوش الاسلامية يرجع الى خالد لا الى مشيئة الله . ولقد كان عمر لا يعرف الهوادة في توطيد دعائم الدين . ولقد كان عمر هو الذي قال : « انما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فليُنظر قائده حيث يقوده . واما أنا فارب الكعبة لأحملهم على الطريق » . وهذا ما نهجه .

ذلك ان عمرا هو الذي وثق القواعد التي أراد بها النبي أن تحكم المسلمين . فقد لاحظ بعد وفاة النبي أن الحفاظ كادوا يندثرون ، فأمر زيدا كاتب النبي بجمع القرآن ونسخه في المصحف مرتبا حسبما كان الرسول يتلوه على لسان جبريل منزلا من عند الله . وأصبح القرآن والحديث مصدر شريعته الاسلامية التي تنظم حياة المسلمين في العبادات والمعاملات .

وبعد وفاة عمر وجدت نسخ أخرى متداولة ، فعمل
خليفته عثمان على ايجاد نص واحد رسمى . وفى عام ٦٥١
عين زيد للقيام بواجب المراجعة ، وجمع النص الرسمى
للقرآن نقلا من الأصل الذى وجد عند حفصة بنت عمر
احدى زوجات النبى ، فعاش القرآن الكريم عبر القرون
كتاب الله الخالد وتجسيدا لكل علوم الاسلام وحكمته
ولبكل ما فى اللغة العربية من بلاغة وبيان .

وكانت احدى النتائج المباشرة لهذا الجهد هى وضع
الاساس لنظام تعليمى . وكان أوائل المسلمين فى العصر
الاسلامى هم قراء القرآن الذين بعث بهم عمر رسلا فى
كافة أرجاء بلاد العرب ، وكانت أولى المدارس هى تلك
التي أقامها أولئك المعلمون فى المساجد ، حيث كان يدعى
الناس فى كل يوم جمعة شـسـبـانـا وشـيـبـا بأمر الخليفة
للاستماع الى ترتيل القرآن . وقد ظل نظام التعليم العام
مقصورا على هذه (المدارس الدينية) طوال المائة عام
التالية أو يزيد ، ذلك ان الطبقات الحاكمة فى تلك الفترة ،
مع بعض الاستثناء ، لم تكن تتميز برعايتها للتعليم ،
وكانت تعد الصحراء ، التي كانوا يرسلون أبناءهم اليها
للتعليم ، هى أفضل المعاهد . ففيها كان الشاب يتلقى
كل ما يعد صالحا له - اللغة العربية الفصحى للقبائل ،
الى جانب طائفة من مقسومات الرجولة مثل الفروسية
والسباحة والرماية بالسـسـهـام . وفى عهد الخليفة
عبد الملك ، جىء بمربين خصوصيين من البلاد الأجنبية
لتعليم قواعد اللغة العربية . وبدأ عدد قليل من الأطباء
فى القيام ببحوث فى الكيمياء والطب بالاعتماد على المصادر
اليونانية والفارسية .

وهكذا ظل القرآن والمسجد هما الأساس للتعليم عند

العرب ، الى ان جاء الخلفاء العباسيون فبدأوا عصر
التعليم الكبير في القرن التاسع بما أقاموه من أكاديميات
التعليم العالي والعلوم ، بعد أن ظل التعليم مقصورا على
مبادئ القراءة والكتابة وقواعد اللغة والشعر والحساب
البسيط .

الفصل الرابع :

فتح فارس ومصر

تري ما هي القوى التي كانت وراء الفتوحات العربية والتوسع خارج شبه الجزيرة ؟ هل كانت الحوافز الدينية وحدها هي التي دفعت الى هذه الوثبة الكبرى ، ام كانت لاسباب اخرى اقتصادية واجتماعية كما ذهب الى هذا بعض المستشرقين ؟ في هذا الصدد يقول الجنرال جلوب في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) ان « الضغط السكاني والضروريات الاقتصادية ما كان يمكن وحدها ان تولد مثل هذا الانفجار البركاني . كان الامر يتطلب بواعت روحانية ومثالية عميقة متقدمة لشبوب مثل هذه الفورة المتفجرة » . وعلى هذا كان اجماع المؤرخين العرب ، الذين فسروا هذه الأحداث الجسام بأنها تسلسل طبيعي بعثت عليه الحماسة الدينية ودوافعها الخالصة .

والواقع انه لم يكد يتم فتح الشام وفلسطين حتى أصدر عمر اوامره للقيسامة بهجوم جديد ضد الفرس في العراق . ففي عام ٦٣٧ ، وبعد أن توفي المشي متأثرا بالجراح التي أصيب بها في معركة البويب ، أرسل عمر واحدا من (صحابة) الرسول في موقعة بدر - وهو سعد بن أبي وقاص - على رأس جيش يربو على ثلاثين ألف رجل ، معززا بحملات من القبائل المحلية ، للهجوم والاستيلاء على

العاصمة الفارسية طيسفون .

وكان الامبراطور الفارسي يزدجرد شابا حاد الطبع
اغضبته وصول وفد من العرب في ملابس خشنة من قبل
سعد يدعو الى اعتناق الاسلام ، فتجاهل نصيح رستم
وتعديده وامر جيشه بمهاجمة المسلمين القادمين . وكما
أدرك قواده الاوفر حكمة انه ما كان يمكن أن يوقع نفسه
بأكثر من هذا في أيدي العرب ، اذ بدلا من المجازفة بقواته
في المناطق المكشوفة بالصحراء ، كان ينبغي له ادخالها
خلف الاستحكامات الحصينة لعاصمته واستدراج العرب
الى خارج معقلهم الطبيعي في الصحراء . بيد ان طبع
الامبراطور الشاب الحاد قلب عليه ، وفي شهر مارس
من عام ٦٣٧ خرج الجيش الفارسي لاعتراض زحف المسلمين
عند القادسية على بعد اميال قليلة غرب الحيرة في وادي
الفرات . ومن مجلسه فوق عرش مذهب مظل على ظهر
أحد الفيلة باشر رستم ادارة العمليات عندما اخذ جيشه
الذي قيل انه كان يربو على المائة الف يهبط على الفزاة .
وقد احتدمت المعركة مدى اربعة ايام ، وفي اول الامر
كالت الكثرة العددية للفرس شديدة الوطأة على العرب .
ولكن عندما بدأ رماة جيش سعد في تصويب سهامهم الى
أعين الفيلة ، اخذت الحيوانات التي أعماها الرمي تتخبط
على غير هدى وتدوس على صفوف رجالها . ولقد لقي
رستم مصرعه بتشديد العرب لرمي السهام انتهازا لهذه
المزية المفاجئة ، فتحطمت صفوف الفرس ولاذوا بالفرار ،
تاركين غنائم جزيلة على أرض المعركة المنتصرين .

وهكذا كانت هزيمة الجيش الفارسي الشامخ الذي
رد الجيوش البيزنطية منذ سنوات قلائل الى أبواب
القسطنطينية على أيدي رجال القبائل العرب . وقد

أصبحت العراق بأكملها الآن تحت أقدام الجيوش
الإسلامية ، وباحتلال الشام في الشمال حتى جبال
طوروس ، دق الآن أسفين بين الإمبراطوريتين الكبيرتين .
وقد فر يزدجرد من طيسفون ، وبانضمام القبائل
المسيحية في الشمال إلى صفوف المسلمين بكاملهم ،
استولى سعد على العاصمة الفارسية .

أخذت الإمبراطورية الفارسية الآن تترنح ، ومع أن سعدا
أراد مواصلة الزحف إلى خراسان عبر جبال زاغروس ،
فقد طالبه عمر بالتوقف خشية أن يتجاوز العرب حدود
طاقتهم ويتعرضوا لخسران كل ما ظفروا به حتى الآن .
وفي عام ٦٣٨ أقيمت قواعد حربية جديدة في البصرة
والكوفة في وادي الفرات ، وأصبحت الكوفة بأمر الخليفة
عاصمة العراق محل طيسفون .

على أنه بمضي ثلاث سنوات اقتنع عمر بأنه إن لم
يضرب أولا فقد يعود يزدجرد بجيش أكبر لخراج
العرب . وهكذا انطلقت جيوش المسلمين مرة أخرى فتم
الاستيلاء على الموصل عام ٦٤١ ، ثم تحولت الجيوش
العربية شرقا عبر جبال زاغروس ، وعند نهاوند على
حدود أذربيجان هزموا جيشا جرارا للفرس فقد ثلاثين
ألفا في المعركة ثم ثلاثين ألفا أخرى عندما طارد العرب
فلولهم شرقا . وبحلول عام ٦٤٤ اجتاح الجيش الإسلامي
المظفر ثلاثة أرباع أراضي إيران الحديثة ووطد حكمه في
ولايات (فارس) في الجنوب العربي ، وفي خراسان
الشمال الشرقي ، وفي أذربيجان في الشمال الغربي . وقد
أعقبت هذه الفتوح الجديدة دخول الناس في دين الله
أفواجا ، فقد نبذ الفرس عباد النار معتقدات زرادشت
وتقاطروا لاعتناق الدين الإسلامي .

وفي خلال ذلك كانت الجيوش الإسلامية توجه اهتمامها إلى الغرب . وكانت مصر تجتذب العرب كما اجتذبتهم الشام والعراق لأسباب اقتصادية واستراتيجية ، إذ كانت مصر إحدى الممتلكات الثمينة للإمبراطورية البيزنطية ، حتى كان الروم يعدونها مخزن الفسائل الرئيسي لهم . ومن الناحية الاستراتيجية كان من الأمور الحيوية انتزاع مصر من أيدي البيزنطيين ، بسبب قربها للحجاز بصورة لا تبعث على الاطمئنان ، ولأن وجود ميناء الاسكندرية كأحد القواعد الرئيسية للروم جعل في مقدور أسطولهم البحري تهديد فتوح الإسلام الجديدة في فلسطين والشام . وبمعكس ذلك لو تملك العرب دلتا النيل لكانت لهم قاعدة تمكنهم من مزيد من التوسع داخل الأراضي التي يحتلها البيزنطيون على امتداد ساحل افريقية الشمالى .

وهكذا كانت الخطوة التالية بعد الشام وفلسطين هي في اتجاه مصر . وفي عام ٦٣٩ أوفد عمر بن العاص على رأس جيش صغير قواته أربعة آلاف من الفرسان - ضوعف بعد ذلك إلى عشرة آلاف - لادخال مصر تحت راية الدين الإسلامي .

ولقد قوبل عمرو ، مثل خالد في العراق ، باستقبال حار من القبائل المحلية حالما وصل إلى الأراضي المصرية ، وتلقاه الأقباط بالتعاطف لما كانوا يلقون من أشد القمع على يد البطريق البيزنطي بسبب رفضهم التحول إلى مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الرومية ، ولما اشتهر به المسلمون من تسامح حيال الديانات الأخرى .

وكان الهدف الأول لعمرو هو حصن بابليون البيزنطي الكبير ، الذي كان قائما في موقع القاهرة الحديثة . وبعد

ان تقدم على امتداد الساحل من غزة واتجه الى الداخل
بحذاء دلتا النيل ، انضمت اليه تعزيزات من (المدينة) ،
وفيما بين ابريل ويوليو عام ٦٤٠ خاض ضد البيزنطيين
عدة اشتباكات ناجحة باستدراجهم الى داخل الصحراء .
ولكن اجتماع البيزنطيين بحصنهم المنيع بعد كل مرة اطال
الحرب وحتى آخر العام . ولكن ما ان نهي الى علم
الحامية الرومية ان امبراطورهم هرقل قد توفي في
القسطنطينية حتى تخلى المدافعون عن القتال . وقد سمح
لهم في مقابل تسليم حصن بابايون بكل ما فيه من مؤن
بالانسحاب عبر النيل تحت راية الهدنة . وبعد أربعة أشهر
كان عمرو يزحف خلال الدلتا ويطرق ابواب الاسكندرية ،
وبعد أربعة آخر ، في نوفمبر عام ٦٤١ ، التمس المقوقس
الصلح ، بعد ان أدرك نائب الملك هذا ان سياسة القمع
والمد الاسلامي القلاب قد جعلتا البلاد كلها ضده .

وعندئذ استسلمت الاسكندرية بالشروط المعتادة -
توفير الحماية للمسيحيين واليهود في مقابل الجزية
والضرائب ، وسمح للجيش البيزنطي بالانسحاب بحرا
الى القسطنطينية . وفي ذلك العهد كانت عاصمة مصر
وهي الاسكندرية لا تسبقها سوى القسطنطينية جمالا
وثراء . لقد استحدث تفوقها وبهاءها من امبراطوريتها
روما وبيزنطة ، ومن قبلهما من الفاتحين الاغريق اللذين
أسسوها . كانت سماؤها الصافية تظل منارتها الشهيرة
فاروس التي كانت تعكس اشعة الشمس نهارا ونارها
الهادية ليلا ، ومبلى الجرانيت الضخمتين اللتين تقومان
الآن في سنترال بارك بمدينة نيويورك وعلى رصيف نهر
التيمز في لندن ، وكذلك المعبد الذي شيدته كليوباترا
تكريما ليووليوس قيصر . ولا عجب اذا كان عمرو قد كتب
الى الخليفة يبلغه بأنه استولى على مدينة تجل عن

الوصف ، بما فيها من أربعة آلاف من الفيللات وأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألفا من اليهود سوف يؤدون الجزية .

وقد تم الآن احتلال مصر كلها حتى حدود النوبة ، واخضاع ليبيا ، بما فيها مدينة طرابلس البيزنطية ، لنظام الجزية . وقد أثبت عمرو قدرته في التنظيم الإداري عندما شرع في دعم انتصاراته ، فبنى عاصمة جديدة سماها القسطنطية (هي الآن مصر القديمة) قرب بابليون حيث كانت القناة الفرعونية القديمة تصل النيل بالبحر الأحمر . وقد عين عمرو حاكما عسكريا ، وعهد الإشراف على الضرائب إلى عبد الله ابن أبي سرج وهو أخ لعثمان في الرضاة . ولكن بعد ثلاث سنوات فقد عمرو منصبه بنهاية عهد عمر بن الخطاب الذي دام عشر سنوات على يد عبد فارسي طعنه بخنجر وهو يدخل مسجد (المدينة) ، توهم أنه تلقى من الخليفة حكما غير عادل بصدد نزاع مالي رفع إليه .

وقد خلفه عثمان صهر الرسول (ص) الذي انتخبه أهل الشورى الذين اختارهم عمر وهو على فراش الموت . وكان من أوائل أعماله استدعاء عمرو من مصر وتعيين أخيه في الرضاة عبد الله واليا مكانه . وفي عام ٦٤٥ استعاد الروم الاسكندرية . فسارع عثمان بإعادة عمرو لاستعادة المدينة ، وبعد أن تم ذلك طلب منه البقاء في قيادة الجيش مع بقاء عبد الله عاملا على بيت المال ، وبعد أن رفض عمرو هذا الوضع ثبت عبد الله واليا على مصر .

وعلى هذا النهج سارت السياسة الجديدة في إشراف الأقارب بالوظائف ، خصوصا من كانوا من بني أمية ، حتى لقد ظفروا بكافة الوظائف الكبرى في الحكومة .

والجيش ، مما كان ماثرا للنقد والسخط والمرارة .

وبعد عشر سنوات تفاقم الحال فلجأ عثمان الى علي يطلب عنده المشورة وكان محتجبا طوال هذه المدة . فكان من رأى على ان على الخليفة ان يعمل على (اصلاح البيت) لكي يستل سلاح الناقدين . فدعا الخليفة الى مؤتمر من ولاته في الأقاليم ، ولكن عثمان لم يفعل وكان قد جاوز الثمانين من عمره وبدأت نذر الثورة عليه .

ولم تمض أشهر قلائل حتى ثار أهل الكوفة ، ولكن ثورتهم أخمدت ، بيد ان روح الثورة سرعان ما انتقلت الى مصر ، حيث قام المتمردون بزعامة محمد بن أبى بكر يخلع الوالى عبد الله بن أبى سرح . وفى عام ٦٥٦ زحف جند مصر الى (المدينة) ولقيهم على ولامهم على الخروج على عثمان فلم يسمعوا له فلزم بيته ، وترك لولديه الحسن والحسين حراسة دار الخليفة .

كانت (المدينة) بغير حامية تسهر على حراستها فى هذه الفترة ، وكان معظم بنى أمية قد فروا من الحجاز عند اقتراب الثائرين . وهكذا تمكن المتمردون من محاصرة دار الخليفة ، وكان هدفهم حمله على التنازل وبهذا يتفادون سفك الدماء . ولم تؤد المفاوضات الى نتيجة ، فتسوروا البيت من السقف ، وطعن محمد واثنان من شركائه الخليفة حتى قضوا عليه . وبعد ثلاثة أيام دفن عثمان وهو بملابسه المخضبة بالدماء ، وكان ذلك ايدانا بفتنة كبرى .

الفصل الخامس :

الحرب الأهلية

بينما كانت الثورة ضد عثمان تتجمع في العراق ومصر ، وكان العرب قد قضوا على دولة الفرس واستولوا على الروم وعلى الشام ومصر ثم زحفوا الى تونس وهزموا جيشا كبيرا للروم جنوب قرطاجة، عاصمة شمال افريقية البيزنطية . وفي الشمال استولوا على قبرص وفزوا آسيا الصغرى ودمروا الاسطول البيزنطي على مقربة من شساطيء الاناضول . ثم زحفوا الى ارمينيا وتوغلوا حتى البحر الأسود وانشأوا منه غربا حتى مسافة أميال قليلة من القسطنطينية . وفي الشرق اكتسحوا الجيوش الفارسية وأزاحوها واندفعوا من خراسان للسيطرة على أفغانستان وتركستان . وعندما قتل كسرى يزدجرد عام ٦٥١ كان ذلك ايلانا بنهاية الدولة الفارسية التي ظلت مزدهرة مدى اثني عشر قرنا .

ولكن قوة الدفع في حركة التوسع الاسلامي ما لبثت ان توقفت بمقتل عثمان . واصبحت العداوة التقليدية بين الأمويين والهاشميين ثارا دمويا ، وتحول العرب من قتال أعدائهم الى الاقتتال فيما بينهم ، وفي اثناء الصراع قتل طلحة والزبير . واصبح علي بن أبي طالب هو المرشح الرئيسي للخلافة تؤدي به خليفة ، وقد طالب الأمويون بثأرهم من علي . وتزعمهم في ذلك معاوية بن

أبي سفيان ، الذي استطاع من خلال وجسوده وألـيا وقائدا عاما في الشام أكثر من خمسة عشرة سنة أن يكسب قلوب أهل الشام بحكمة المستنير . وكان أول عمل قام به مهاوية من أعمال التحدي للخليفة الجديد هو تعليق قميص عثمان المخضب بالدم في مسجد دمشق لاثارة روح الثار . وعندما كتب اليه على يطلب منه الولاء رد عليه بورقة بيضاء .

ولم يستطع على أن يقطع برأى في كيف يعالج هذا التحدي . ولكن التردد في مثل هذا الموقف كان خطرا فان قبائل البدو غدت اقرب الى التمرد بعد ان وجدت امامها مرة أخرى فرصة للعودة الى الفوضى . وبقي العراق وحده الذي بدأت فيه الثورة ضد عثمان على ولائه لنظام الحكم الجديد . ومع ذلك فان رد الفعل الوحيد الذي بدر من جانب علي كان عزل ولاة عثمان عن البصرة واليمن ومصر .

وأخيرا تحرك الخليفة للعمل وسيسارع الى الكوفة لحشد أنصاره . وقد انضمت اليه قبيلة بني بكر ، وبعد وعد أهل الكوفة بأن مدينتهم ستصبح عاصمة الخلافة بدلا من (المدينة) ظفر بتأييدهم وجمعوا له جيشا قوامه عشرة آلاف رجل لسحق الثورة . ولكن عليا كره مهاجمة عائشة أم المؤمنين التي أنكرت خلافة علي ، ولكن القتال وقع بين الجانبين قبل أن يحاول كسبها بالمفاوضات . وقد انتصر على وسميت المعركة فيما بعد وقعة الجمل . وقد قتل الزبير وهو يحاول الهرب ، وأعيدت عائشة الى (المدينة) معززة مكربة حيث توفيت بعد ذلك بأربعة عشر عاما وهي في السادسة والستين .

وهي بايع جند العراق عليا خليفة غير منازع أما في

الشام فكان عليه أن يحسب حساب معاوية الذي رفع راية قميص عثمان المملوح بالدم لحشد جيش متزايد من أنصار الأمويين . ولم تجد كل محاولات علي لكسب ولاء المدافع الجديد عن البيت الأموي أذنا صاغية من معاوية ، وفي النهاية صمم علي أن يزحف إلى الشام ، وفي أبريل من عام ٦٥٧ التقى وهو على رأس جيش من خمسين ألفا بجيش معاوية من أهل الشام عند صفين على نهر الفرات . وقد أشرف علي على الانتصار عندما لجأ عمرو بن العاص القائد الثاني في جيش معاوية إلى خدمة هي رفع المصاحف فوق رماح الجند . وفي الحال توقف رجال علي عن القتال بعد أن فسروا هذه البادرة على الوجه الذي أريد لها باعتبارها نداء إلى تحكيم القرآن . وقد اضطر علي إلى الموافقة على حل الخلاف بالاحتكام إلى كتاب الله .

وعندما اجتمع الحكماء بعد ستة أشهر كان مندوب علي شيخا ساذجا غير محنك في السياسة بالقياس إلى عمرو مندوب معاوية ، فقد وافق مع عمرو على خلع كل من موكليهما من الخلاف ، وهي حيلة جعلت عليا هو الخاسر الحقيقي ، إذ أن معاوية لم يكن مطالباً بالخلافة . وقد قامت الآن بين الاثنين المتنافسين هدنة مسلحة ، كان فيها معاوية مسيطرا على الشام ، وعلى معترقا به العراق وفارس ومصر والحجاز .

ولم يلبث معاوية أن شرع في فصم عرى ولاء أقاليم أخرى للكوفة ، فبدأ بمصر التي أرسل إليها عمرو بن العاص مرة أخرى مع قوة من الأمويين حيث نصب عمرو نفسه واليا عليها من قبل معاوية . وعندما اطمأن معاوية من ناحية مصر زحف على شمالي العراق ، في حين كانت

جيش الخليفة تقف موقفها سلباً ، وكانت الخطوة التالية هي الزحف الى بقية العراق ذاته ، واستطاع معاوية اثارة اهل البصرة على الخليفة ، كما ارسل قوة من ثلاثة آلاف رجل الى المدينة ومكة ، حيث اعتلى قائدها المنبر وتوعد بالموت كل من لا يقسم بالولاء لمعاوية .

وبحلول عام ٦٦٠ أدت هذه الفسارات الاموية الى انحسار رقعة سلطان علي حتى اقتصرت على فارس وركن صغير من العراق كانت السكوفة مركزه ، ونادى معاوية بنفسه خليفة في بيت المقدس . وأخذ انصار علي ينفضون عنه بسرعة او ينضمون الى الامويين او يلوذون بالاختفاء . وعند هذه المرحلة ظهرت في العراق طائفة جديدة من المنشقين سميت (بالخسوارج) ، وقد رفض هؤلاء الاعتراف بكل من علي او معاوية خليفة ، واقسموا ان يفتلوا في وقت واحد الخليفة في الكوفة ، ومعاوية في دمشق ، وعمر في مصر . وقد تحرك علي لاستئصال هذا التهديد في المهد ، فهاجم معسكر الخوارج في نهر وان . لكن على الرغم من انهم منوا بهزيمة ساحقة . فقد رفض هؤلاء الخسوارج التسليم ، وفي نيسان عام ٦٦١ هاجم واحد منهم الخليفة بسيف مسموم قرب مسجد الكوفة . وحاول آخر قتل معاوية في دمشق ، وفي مصر أخطأ القاتل الثالث عمرو وقتل شخصاً آخر . وهكذا بقي معاوية وحده في الميدان .



في الوقت الذي استشهد علي على هذه الصورة ، كان معاوية حاكماً لا ينازعه أحد في الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية ، وبدأ يطبق على العراق ، وكانت

الكوفة وخراسان هما اللتان لم تعترفا بحكمه . ولكن ذلك لم يدم طويلا .

لقد اختار اهل الكوفة الحسن بن علي خليفة اثر وفاة ابيه ، تكريما للذكراه ، واثر الحسن أن يجعل مقره في العاصمة الفارسية القديمة طيسفون . ثم أرسل جيشا من الكوفة ضد معاوية ، ولكن عندما ترامت الشائعات الى طيسفون بهزيمة هذا الجيش ، بادر الحسن بالتنازل لصالح معاوية ، وانسحب الى (المدينة) حيث أقام بها ثم مات بعد قليل .

لقد نقلت الآن عاصمة الخلافة رسميا الى دمشق ، حيث ظلت بها طيلة تسع وثمانين سنة . كما ان معاوية اضطلع باصلاحات ادارية معينة استهدف منها تنظيم حكومة الدولة وتجديدها . كانت دولة الاسلام حتى وقتئذ مقسمة الى وحدات ادارية او ولايات مطابقة بصفة عامة لتقسيمات الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية . وكانت كل من بلاد الشام وفلسطين والعراق ولاية قائمة بذاتها وكذلك كانت العراق ، وخراسان ، البحرين وعمسان ، وشرق فارس ، والحجاز ، وارمينيا ، ومصر ، وشمال افريقيا ولايات لها عمالها ، واخيرا اليمن وجنوب البلاد العربية ، فجعل من هذه التقسيمات الثقيلة العباء خمس ولايات : ولاية العراق ، وتشمل الشام وشرق البلاد العربية وقد وضعت تحت اشراف وال واحد وجعلت الكوفة عاصمة لها . وبالمثل ادمجت الحجاز واليمن وجنوب البلاد العربية في ولاية واحدة . ووسعت ولاية ارمينيا لكي تشمل اقليم الجزيرة فيما بين نهري الدجلة والفرات ، وضمت كل من مصر وشمال افريقية وغرب وشرق فارس في ولاية واحدة .

وكان معاوية أيضا هو أول خليفة عمل على تفويض السلطة . فلم تعد وظائف الحكومة الثلاث وهي الإدارة السياسية وجبسية الضرائب والامامة مركزة في يد الخليفة ، ولكن عهد بكل منها الى عامل معين . وأصبح الولاية أحرارا في تعيين نواب لهم في نطاق ولاياتهم دون الرجوع الى دمشق . وبدلا من تصريف شئون القضاء بمعرفة الخليفة شخصا كما كان يفعل أوائل الخلفاء عين قضاة مستقلين في سائر أرجاء الدولة . كما أنشأ ديوانا للحكومة ، ونظاما للبريد وحفظ الوثائق الحكومية لمواجهة حجم المراسلات المتزايدة وضمانا للمحافظة على الوثائق الرسمية .

وفي نفس الوقت شرع معاوية في تقليص آخر معقل لقوة العلويين في الشرق . فدعا والي على في فارس وهو زياد بن أبيه الى دمشق حيث أغدق عليه الكثير ، وبعد ذلك عرض ولاية الامبراطورية الشرقية بكاملها عليه . وقد انضم زياد وهو ابن غير شرعي لأبي سفيان الى معاوية ، ولا سيما حين عرض عليه معاوية الاعتراف به اخا شرعيا له . وعندما رجع الى دائرة ولايته المتضخمة ، شكل زياد أول قوة للشرطة في الامبراطورية العسكارية واستخدمها في تعقب الشيعة المناصرين للحسين بن علي . وقد أدت سياسة القمع التي انتهجها زياد الى بسط سلطان معاوية على الأقاليم الشرقية كلها .

وبعد أن أحكم معاوية قبضته على القاعدة الداخلية وجه الجيوش العربية الى الهجوم في جميع الاتجاهات مرة أخرى . فعلى جبهة الروم استغل السيطرة البحرية التي توطدت للعرب منذ الاستيلاء على القسطنطينية البحرية البيزنطية في الاسكندرية وقبرص وتدمير الأسطول

البيزنطى ، لقيام العرب بالإغارة على صقلية ورودىس
والأبحار حتى الدردنيل لهاجمة القسطنطينية ذاتها ،
وان لم يتيسر لهم التأثير فى هذه القلعة المنيعه . وفى
الشرق عبر العرب نهر جيحون الى ازبكستان وأغاروا على
بخارى ، وأدخلوا مدينتى بلخ وهراة القسديمتين فى
أفغانستان تحت سيطرة الاسلام ودعموا حكم المسلمين
حتى ضفاف نهر السند . وفى افريقية عهد الى عقبة بن
نافع ابن أخ عمرو . بتعزيز حدود الامبراطورية غربا الى
أبعد حد ممكن . ذلك أنه حتى ذلك الحين ، وبسبب
حاجة العرب الى قاعدة لهم أقرب من القسطنطية فى مصر -
وهو ما يعنى وجود خط للمواصلات طوله ألف وخمسمائة
ميل تحت رحمة المسندو وهجماتة باستمرار - كانت
الجيش العربية التى تصل الى أية مسافة على امتداد
الشاطئ الشمالى لافريقية تضطر الى العودة . واذن
فقد قام عقبة فى عام ٦٧٠ بإنشاء العاصمة العسكرية
الحصينة وهى القيروان فى تونس ، فى منتصف المسافة
بين مصر وبين أقصى نقطة لشمال افريقية البيزنطى فى
مراكش ، ومن القيروان أقام سلسلة من الاستحكامات
شرقا وغربا لمنع هجمات الجيش البيزنطية من قرطاج
وغارات قبائل البربر من داخل الأراضى الجبلية التى لم
تفتح بعد . وبعد تحييد تونس على هذه الصورة تقدم
عقبة مواصلات زحفه عام ٦٨٣ الى مراكش ، حيث استولى
على طنجة واحتل الساحل الأطلسى حتى أغادير جنوبا .
ولكنه وجد نفسه ، كما حدث للفاتحين العرب السابقين
فى طرابلس وتونس ، بعيدا عن قاعدته بمسافة ألف
ميل ، وعلى الرغم من أنه قوبل بمقاومة قليلة فى زحفه ،
فإن خط مواصلاته الطويل والمجرد من الحماية ، اقتضاه
من باب الحكمة أن ينسحب الى القيروان . ولما كان يتوقع

أن يصادف مقاومة قليلة في عودته كالتى صادفها في زحفه الهجومى ، فقد قسم قوته الى عدة ألوية صغيرة بهدف تغطية وتهدة أكبر ما يمكن من المناطق الواقعة الى الغرب من تونس . ولكنه فى هذا ارتكب غلطة خطيرة ، فعند بسكرة فى شرق الجزائر وقع هو وجنود لوائه فى كمين من قوة كبيرة من البربر وذبحوا على بكرة أبيهم . وظل شمال افريقية فى مدى الخمس والعشرين سنة التالية من طنجة الى طرابلس لا يعرف سوى حكم قبائل البربر القاسى ، باستثناء جيوب معزولة قليلة للبيزنطيين قبل قرطاجة .

وبينما كانت معركة التوسع على أشدها فى كل هذه الجبهات . كان معاوية فى دمشق يضع خططا دقيقة لضمان الاستقرار الامبراطورية بعد وفاته . فلكى يتفادى تكرار الحرب الأهلية التى أعقبت مقتل عثمان وكادت أن تؤدى الى تمزيق الامبراطورية الوليدة ، عقد عزمه على أن ينبذ نهائيا القاعدة الانتخابية وأن يؤسس نظاما للحكم يتعاقب فيه الخلفاء بالوراثة وذلك بتعيين ابنه يزيد خلفا له . وقد قبل اهل الشام هذا الاقتراح ، كما كانوا يفعلون ازاء أى شىء يعرض عليهم . ولم تعترض العراق بوجود زياد مسيطرا عليها . ولكن يعرض القضية على المدينة ومكة ، فان الحسين بن على الأصغر ، لكى يبين ان الثأر بين الأمويين والهشاشيين لم ينته بموت أبيه وبتنازل أخيه عن الخلافة ، قد اعترض بشدة على ماسماه تقليدا غير ديمقراطى للنظام الروحى والرومانى . ولما كان بوسع الحسين بالطبع كحفيد للنبي ان يعتمد على تأييد شعبى ضخم فى الحجاز ، فقد قرر معاوية أن يتجاهل معارضة هذا المعارض الذى يحظى بالتوقير ،

لا أن يعمد الى الاكراه ، وهكذا نودى يزيد ورثته للخليفة .

ولكن هذا الأسلوب من جانب معاوية فسر في مكة والمدينة على انه ضعف ، غير أن هدفه كان تفادي قيام حرب أهلية أخرى ، ولا سيما انه قد جاوز الآن السبعين من عمره ، وكان يؤثر عدم الالتجاء الى القوة اذا بدا له أن غايته يمكن أن تتحقق بأساليب أخرى .

ولقد أدرك وهو على فراش الموت في عام ٦٨٠ أن أسلوبه في تجاهل خصومه الهاشميين لم يؤت ثمرته . وحذر ورثته يزيد من أن الحسين قد يحاول الاستيلاء على الملك ، ولكنه نصحه بأن يتعامل معه برفق اذ يجري في عروقه دم الرسول . كما حذر يزيدا من عبد الله بن الزبير ، وهو عدو لدود للأمويين ، وقد قاد أبوه وعمه الزبير ومحمد بن أبي بكر ، الثورة ضد عثمان . والواقع انه لم يكذب صدر هذا النذير حتى نادى عبد الله بن الزبير بنفسه خليفة في مكة ، وترك حسين (المدينة) الى الكوفة مع حرس من سبعين من الشيعة لاشغال ثورة العراق والاستيلاء على الخلافة من يزيد . ولكن مبادرة والى الكوفة عبيد الله بن زياد حالت دون وصول الحسين الى الكوفة ، فانسحب الى الكربلاء التي تبعد خمسين ميلا الى الشمال ، لكي يتدبر خطوته التالية . وقد أوفد اليه عبيد الله رسولا يدعو الى الاستسلام ، فلجأ الحسين الى كسب الوقت أملا في جمع القبائل تحت لوائه . وبيد أن عبيد الله الذي فطن الى نواياه أمر بمحاصرة معسكره . وقد تعددت الروايات وتضاربت في وصف حقيقة المعركة التي تلت بعد ذلك . ولكن يبدو انه على الرغم من أن قوة الحسين القليلة كانت تواجه قوة تفوقها

عددا بنسبة خمسين الى واحد ، فان القوة الصغيرة صدت
جنود الكوفة مدى ساعات كثيرة . وعندما استنفدت
كافة الأساليب والحيل الدفاعية وخر كافة اتباع
الحسين صرعى ، واجه أعداءه بمفرده . فقد حمل على
الكوفيين الذين تملكتهم الدهشة حملة شديدة حتى شق
صعوفهم ببسالة المستميت ، الى ان سقط بضربه سيف
في العنق . وقد خر رأسه ومثل بجسده بأمر من عبيد الله
وترك جثمانه للجوارح . اما الرأس فقد احتفظ به وقيل
انه دفن فيما بعد في قبر بكر بلاء التي أصبحت مدينة
مقدسة في العراق .

الفصل السادس :

الإرهاب والفتوح في الشرق

كان على يزيد بعد استشهاد الحسين أن يواجه النتائج المتفجرة لانتصاره في العراق . وكان عليه فضلا عن ذلك أن يحسب حساب عبد الله بن الزبير في مكة . ولكنه لم يعالج كلا الأمرين علاجا فعالا ، إذ كان شابا يؤثر التمتع بالحياة .

وفي غضون ذلك كان ثار الدم الذي أهاجه استشهاد الحسين يفور الى حد يقرب من درجة الفليان ، وفي الحجاز ازدهرت مكانة عبد الله بحملاته الشعواء على الأسويين . ولكن يزيدا ظل على تردده مدى عامين ، ولم يحزم أمره الا عندما انضمت المدينة الى مكة في التمرد ، وخلع عبد الله الوالى ، واعتقل ألفا من الأمويين . عندئذ بعث من الشام بحملة تأديبية كان فيها كثيرون من العرب المسيحيين ، فاستولت على (المدينة) وزحف الى مكة حيث حاصرت المسجد الحرام وضربت بالمجانيق ، وفي هذا الحصار اشتعلت النار في السمكة وأصيب الحجر الأسود بصدوع . ولكن المهاجمين ما لبثوا بعد شهرين حين علموا بوفاة الخليفة أن انسحبوا عائدين ادراجهم ، في نوفمبر من عام ٦٨٣ .

لقد أصبح عبد الله بن الزبير الآن حاكما غير منازع

في الحجاز . وقد انتهز فرصة مرض معاوية الثاني بن يزيد فنال اعتراف العراق به خليفة ، حيث أرسل أخاه مصعب ممثلاً له ، وكذلك اعتراف مصر وجنسوب بلاد العرب ، وجزء من الشام ذاتها . وهكذا بات الأمويون يرتجفون أمام زحف الهاشميين المنتقمين .

ولكن الموقف تغير باختيسار الأمويين خليفة آخر من الأسرة الأموية هو عبد الملك بن مروان ، الذي نشط على الفور لتعويض خسائر الأسرة ، واختار لتأكيد سلطانه على أهل العراق المتمردين المتقلبين رجلاً قاسياً لا يرحم هو الحاج بن يوسف الذي كان معلماً سابقاً في الطائف ومن قبيلة قيس في وادي الفسرات . وعندما بعث به لاستئناف حصار مكة استخدم الحجاج المجانيق بأشد ضراوة مما فعل رجال يزيد . وقد سقطت مكة بعد ستة أشهر ، وقتل عبد الله بن الزبير وهو يقاتل حتى النهاية بشجاعة الأسود .

وبوفاة ابن الزبير بدأ الهاشميون يقتتلون فيما بينهم . فدأر عبد الملك إلى أخذ المبادرة في يده ، ورغبة منه في تحويل الحجج عن معقل الهاشميين في مكة ، فقد بنى مسجداً فخماً في بيت المقدس سماه قبة الصخرة ، وقرب تمامه شفع هذا بإرسال حملة إلى مدينة الكوفة المتمردة ، تمكنت بعد وعود بالعفو من هزيمة الوالي الهاشمي في عام ٦٩١ .

بهذا انتهت الحرب الأهلية الثانية ، وانتصر البيت الأسوي ، ولم تعد شبه الجزيرة العربية مركز السلطان والحكم في العالم العربي . وشرع عبد الملك في تعزيز سيطرة دمشق . فأجرى عدداً من التغيرات الأساسية في نظام الحكومة استكمالاً لما بدأه معاوية ، مستهدفاً وضع

مقاليد الأمور في أيدي العرب والتقليل من تأثير الروم والفرس في تصريف شئون الخلافة . وكان في طليعة إصلاحاته مرسوم بإحلال اللغة العربية محل اللغتين اليونانية والفارسية باعتبارها اللغة الرسمية في الشام والعراق ، وكانت النتيجة هي تقلد الموظفين العرب بالتدريج لنطاق كبير من الأعمال في الاداة الحكومية مما كان يشغله الروم والفرس ، وخاصة في شئون المالية والضرائب والادارة . وكان الخليفة الجديد هو أول من سك عملة عربية محل العملات الرومانية والفارسية التي كانت حتى ذلك الحين وسيلة التبادل ، وقد بدأ بالدرهم الفضي والدينار الذهبي .

وفي الامبراطورية الشرقية عقد عبد الملك العزم على سحق الاضطرابات الشيعية نهائيا . ولهذا الغرض اتجه الى الحجاج ، الذي رأى ان نجاحه في قمع العلويين في الحجاز أثناء العامين اللذين أمضاهما واليا في بلاد العرب يؤهله لكي يحكم الشرق بالقبضة الحديدية . ومنذ وصول الحجاج الى السكوفة أظهر لرعاياه ما يدخره لهم . فقد توجه الى المسجد مباشرة وصعد واعتلى المنبر ونزع عمامته عن رأسه وألقى خطبة نارية مشهورة قال فيها : « أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها » .

وكان لتهديده الوحشي اثره المنشود ، وخاصة بعد أن أعقبه بقمع تمرد في البصرة بأشد همجية . ومنذ ذلك الحين قدر للأمبراطورية الشرقية أن تكابد حكما ارهابيا لا نظير له . فقد كان الناس يعدمون أو يسجنون لأدنى شبهة في التعاطف مع العلويين أو مناهضة نظام الحكم الأموي . وقيل انه في غضون ولاية الحجاج للمشرق وفارس التي دامت اثنين وعشرين عاما ، أعدم ما لا يقل

عن مائة وعشرين ألف شخص ، ووجد في السجن عند وفاته ثمانون ألفا .

ولكن برغم ذلك فان ماعده أهل العراق (احتسلا اجنبيا) قد ضاعف من حقدهم على ساداتهم أهل الشام ، وحنينهم الى قيام احياء علوى . وفى عام ٧٠١ وجد العلويون قائدا فى شخص عبد الرحمن بن الأشعث الذى كان قائدا سابقا فى جيش على وكان رابضا فى خراسان منذ انتزاع معاوية السلطة . وقد زحف ابن الأشعث على رأس قوة كبرى سميت (بجيش الطاووس) لفخامة زيتها متجها الى العراق وعبر نهر الدجلة . وسرعان ما فتحت البصرة أبوابها له حفاوة بالمحرز الذى جاء لاتقاساها من عسف الحجاج . ولكن انتصار العلويين كان قصير الأمد . فقد استرد أعداؤهم البصرة بعد تعسيزات قدمت من الشام ، وقيل أن أحد عشر ألفا من سكانها دفعوا حياتهم ثمنا لمساعدة المتمردين . وقد ضم (جيش الطاووس) صفوفه من جديد خارج البصرة ، ولكن الشاميين كانوا أقوى منهم ، وفى الفوضى التى سادت اثر ذلك نجى ابن الأشعث بمعجزة هربا الى خراسان ، وطورد أتباعه وقتلوا تقتيلا على يد قتيبة بن مسلم ، وإلى الحجاج .

كان قتيبة محاربا قلبيا يماثل الحجاج فى قساوته ، حتى تشمل الوديان الخضراء والبساتين النضرة والمدائن الجميلة التى تواترت الروايات عن وجودها فيما وراء نهر جيحون ، وقد وجد فى شخص قائد لامع مثل قتيبة الأداة التى تحقق غايته . وهكذا أطاق الحجاج قتيبة عام ٧٠٥ ، بعد إعادة الهدوء الى العراق وفارس ، فى اتجاه الشرق على رأس جيش يربو على خمسين ألف مقاتل . وفى السنوات العشر التى تلت ذلك ، لم تكن

تمضى سنة دون أن تمتد حدود الامبراطورية العربية الى ما وراء فارس الجنوبية للاتحاد السوفيتى . بل ان جهود خالد بن الوليد وعمرو بن العاص تبدو شاحبة أمام فتوحات قتيبة الذى انطلق جنوده المدرعون ينهالون بقذائفهم من المجانيق والسكباش - وهى صواريخ العصور الوسطى - على مدائن تركستان وأذربكستان . وقد استولوا على بخارى وسمرقند ، واكتسحوا الاقاليم الشرقية حتى استولوا على فرغانة وخوارزم ، ثم وصلوا فى النهاية الى حدود الصين عند قشقر .

وعلى الجناح الجنوبى لقتيبة لم يكن محمد بن قاسم صهر الحجاج أقل نجاحا عندما اجتتاح ما يعرف الآن بباكستان عام ٧١٠ ، واعتنق أهلها الاسلام . ومع ان مطامع الحجاج كانت ترنو الى الصين ، الا ان أحدا من قائديه ، قتيبة أو ابن مسلم ، لم يستطع أن يتقدم أكثر من ذلك ، وبقيت الحدود الشرقية للامبراطورية العربية عند قشقر وطشقند .

لكن اذا كان الحجاج قد أسهم الى هذا الحد الكبير فى توسيع رقعة الامبراطورية العربية شرقا ، فقد كان من المحتمل أن يثمر حكم الارهاب الذى فرضه ثماره المريرة . بيد أنه توفى عام ٧١٤ بسرطان المعدة ، وترك لغيره من الحكام الامويين أن يكابدوا النعمة والانتقام اللذين ولدتهما سياسته ، وخاصة من جانب الشيعة فى العراق وفارس ، ومن الموالى الذين كانوا يعسسون أنفسهم مهضومي الحقوق .

الفصل السابع :

المسند الأموي
سنة إنحصاره

في الوقت الذي كان فيه قتيبة ومحمد بن قاسم يكتسحان بجيوشهما أقطار آسيا الوسطى ، كان هنالك جيش عربي آخر يحتشد لبسط حدود الاسلام في الغرب . فبعد أن ولي الوليد الأول الخلافة عام ٧٠٥ ، عين عمه والي مصر موسى بن نصير واليسا على الاقاليم الغربية . وكان شمال افريقية من طرابلس حتى المغرب قد انتقلت بعد وفاة عقبة في الجزائر عام ٦٨٣ الى حكم البربر ، واضطر العرب الى الجسلاء عن عاصمتهم الغربية الجديدة في القيروان . وكان البربر يغيرون على السهول كما يحلو لهم من مخابئهم الجبلية ، حيث كان العرب يعجزون عن تعقبهم . وفي نهاية القرن السابع تغير الموقف يسيرا واستطاع العرب اعادة الهدوء الى المناطق الساحلية حتى تونس وأن يستردوا القيروان ، بيد انهم لم يتمكنوا الا بعد قدوم موسى بن نصير من اقتحام طريقهم الى الغرب .

فقد قرر موسى القضاء على تهديد البربر بصفة نهائية ، وتهيأ له بعد سلسلة من الهجمات الفلابة غربا أن يقضى على كل مقاومة وأن يوطد سلطان العرب حتى طنجة . والواقع أن أسنوبه في تخيير أسراه بين الانخراط في جيشه بعد

نسب الدين الاسلامي وبين بيعهم في سوق العبيد كان اسنوبا ناجما . وكان من بين هؤلاء الأسرى البربر طارق بن زياد الذي عينه عاملا على طنجة عندما عاد هو الى عاصمته في القيروان .

ولم يكن يدور بخلده أحد ان طارقا سوف ينتوى شيئا غير دعم الحكم العربي في الاقاليم التي فتحت حديثا . ولكنه أقدم في عام ٧١١ على خطوة جسيمة هي عبور المضيق المحدود الذي يفصل افريقية عن اوربا على رأس قوة مختلطة قوامها سبعة آلاف من العرب والبربر واقامة رأس جسر عند قاعدة الصخرة الكبرى التي أطلق عليها اسم (جبل طارق) .

وواصل طارق زحفه واستولى على ما يعرف باسم الجزيرة . ولكن عند هذا الحد صدر اليه الأمر من موسى الذي ترك معقله في تونس بانتظاره قبل متابعة الزحف في شبه جزيرة ايبيريا . وكانت اسبانيا في ذلك العهد يحكمها ملك من القسوط الغربيين هو لذريق الذي لقي مصرعه في المعركة التي دارت مع العسرب واستسلم جنوده . ولم يلبث طارق برغم أمر رئيسه ان انقض على الأندلس واستولى على مالطة وقرطبة وغرناطة .

في ذلك الحين (يونيو عام ٧١٢) وصل موسى أيضا الى اسبانيا مع جيش من عشرة آلاف رجل . وبعد ان استولى على مدينة اشبيلية في فترة قصيرة وكلن الزحف العربي السابق قد تجاوزها ، لحق موسى بنائبه قرب طليطلة حيث عاقب طارقا بوضعه في الاغلال اعصيان امره ، ثم اخلى سبيله فيما بعد .

وباستئناف الزحف العربي سقطت سلانكة، وسرقوسة، وفالنسيا ، وطرغونة ، وبرشلونة ، وجيرونا ، وبحلول

خريف عام ٧١٣ كانت اسبانيا كلها فى ايدى العرب باستثناء نافار واستوريا . وعندئذ استدعى موسى بن نصير الى دمشق لتفسير اسباب مغادرة مقره فى القيروان دون اذن . فترك ابنه عبد العزيز للاشراف على اسبانيا . وعاد ادراجه الى الشام لمواجهة الخليفة الذى كان قد ادركه المرض . ولكنه لم يعد بهيأة النادم ، بل عاد فى موكب المظفر يتبعه على امتداد ساحل افريقية الشمالى رتل من اربعمائة اسير من امراء ونبلاء القوط القريبين بتيجائهم واحزمتهم المذهبة . وفى اثرهم ثلاثة آلاف من العذارى الاسبانيات ومواكب لا نهائية من العبيد والاسرى مثقلين بغنائم الحرب .

ووصل موسى الى عاصمة الامبراطورية فى فبراير من عام ٧١٥ قبل اسابيع معدودة من وفاة الخليفة متجاهلا امر ولى العهد سليمان الذى كان يطمع فى تأخير وصول الموكب المظفر الى ما بعد اعتلائه هو العرش بعد وفاة ابيه حتى يستأثر لنفسه بالمجد لدى ارتقائه . وكان الاستقبال الرسمى فى صحن المسجد الاموى بالقفا حد الفخامة والابهة .

اما بالنسبة لموسى بن نصير فان هذا الاستقبال المظفر كان بدء النهاية . لقد غفر له الوليد عصيان امره ، ولكن عندما توفى الخليفة بعد قليل وخلفه سليمان ، جرد موسى من جميع قياداته وصودرت ممتلكاته ، اذ لم يفتقر له سليمان حرمانه من الاستئثار بشمار النصر لدى ارتقائه العرش ، وقد استهدف موسى بعد ذلك لاشد الامتهان والاذلال حتى توفى فقيرا معدما فى قرية نائية بالحجاز . ولم يكتف سليمان بهذا ، بل امر بقتل عبد العزيز بالسسم وهو الذى لم يكن يحكم اسبانيا فقط بامر ابيه موسى بل

أضاف أيضا جزيرة ماجوركا وغيرها من جزر البليار الى
الامبراطورية العربية . بل انه استدعي محمدا بن قاسم
من الشرق وأمر بإعدامه . ولم يكن قتيبة بن مسلم بأحسن
حظا ، فقد اعتقل وأعدم بعد محاولة قصيرة لرفع راية
التمرد .

وبفض النظر عن هذه الأفعال الانتقامية الوحشية ضد
أبرز وأنجح قادة الوليد ، فقد سسار سليمان في حياته
سيرة سلبية ، مؤثرا حياة الترف والملذات على الفتوح
والمعارك ، تاركاً شئون الدولة في أيدي مستشاريه الذين
كان منهم محسوبه يزيد بن المهلب . فقد عين يزيد مكان
قتيبة وألوا على خراسان ، حيث نذر أن يتفوق على
سابقة في الفتح . لكنه لم يتفوق عليه الا في القسوة ،
إذا أخفق أخفاقا تاما في توسيع حدود الامبراطورية . في
الجبهة البيزنطية فقط تمكنت جيوش الخليفة من الزحف
وعبور الأناضول لمحاصرة القسطنطينية برا وبحرا . بيد
ان هذه المغامرة تعثرت بتفشي الطاعون ، وربما كان هذا
الوباء هو الذي أدى الى مصرع سليمان ، فقد توفي
عام ٧١٧ أثناء زيارة لقواته على الجبهة البيزنطية دون أن
يعقب ولدا يرثه ، فخلفه ابن عمه عمر .

كان عمر الثاني على النقيض من سلفه ورعا زاهدا ،
ورغبة منه في استعادة الوحدة في الامبراطورية فقد حظر
لعن على في المساجد طبقا للتقليد الذي ابتدعه معاوية ،
ورد الى نسل على ضياعا كانت مخصصة للأحسان . وقد
أدت هذه السياسة الى قيام هدنة في العراق وفارس .
فقد نسي العلويون والهاشميون مؤقتا حقادهم ضد الأمويين .
بل ان الخوارج المتطرفين كفوا عن العنف طيلة السنوات
الثلاث التي دامت فيها خلافة عمر الثاني . وقد تحرى

في اسناد الوظائف العامة أن يختار لها أكفأ المسلمين دون
نظر الى عصبية قبلية أو انتساب الى الخليفة . وكان من
المحتم أن يكون يزيد بن المهلب من أوائل المتأثرين بهذه
السياسة الجديدة . فقد حوسب على أفعال النهب التي
كان يتفاخر بها في عهد سليمان ، وانتهى الأمر بنفيه الى
جزيرة للمسجونين في البحر الأحمر ، بيد أن يزيدا لم
يركن الى هذا المصير ، فبعد وفاة عمر الثاني عام ٧٢٠
فر من سجنه وجمع جيشا من مؤيديه واستولى على
البصرة حيث قتل واليها وسطا على خزانتهما . ولكن
نهایتها كانت على يد جيش من ثمانين ألف مقاتل بعث بهم
الخليفة الجديد (يزيد الثاني من اخوة الوليد) ، هزم
ابن المهلب قرب الكوفة وقتله مع ذوى قرابته جميعا .

على أن هذا التمرد لم يكف يتم مسحقه حتى شبت
الثورات في المناطق الجبلية لبحر قزوين ثم شرقا حتى
فرغانة . ومرة أخرى اتحد العلويون والموالي في قضية
مشتركة . وعندما توفي يزيد الثاني عام ٧٢٤ ، قام زيد بن
علي حفيد الحسين الشهيد بأولى سلسلة الثورات التي كان
مقدرا أن تبلغ ذروتها في الاطاحة بالأمويين . فأمر هشام
الخليفة الجديد وآخر أبناء عبد الملك في وراثة العرش ،
بالقضاء على زيد بلا رحمة ، وعين لهذه المهمة قريبا للحجاج
يدعى يوسف بن عمر ، وكان واليا على اليمن .

واتخذ يوسف من تفويض الخليفة سلاحا يضرب به
في غير ترفق ولا رحمة زيدا واتباعه . ولكن الشبكة
كانت تطبق على الأمويين ، وألفى هشام محاصرا بالاعداء
في كل جبهة . ذلك أنه عندما قرر عمر الثاني في عام ٧١٧
سحب الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية ، فطن
الروم فجأة الى احتمال بلوغ الامبراطورية العربية طرور

التضاؤل والانكماش . وبحلول عهد هشام اخذوا يتدفقون عائدين عبر الاناضول ويهددون معساقل الامبراطورية الشمالية . وكان نشاط العلويين والخوارج قد جعل العراق وفارس في حالة غليان مستمر . وفي آسيا الوسطى ثارت القبائل المحلية واستولت على سمرقند من ايدي العرب وهددت بخارى ، التي لم يكن انقاذها الا بثمان الالف من الضحايا العرب . ثم امتدت العدوى الى ارمينيا . وفي افريقية ثار ثلاثمائة الف من البربر ، ودارت معركة دموية قرب القيروان عام ٧٣٥ مثلما امكن سحق الثورة . وبعد ست سنوات اشعلت دعاية الخوارج ثورة اخرى للبربر في مراكش .

لقد بدا حكم هشام لونا من حصار طويل متصل . ولم يتحقق اى انتصار يمكن ان يخفف من جو الكآبة السائد الا في الجبهة الاسبانية . فان عبيد الرحمن بن عبد الله والى اسبانيا منذ مقتل عبد العزيز الشاب قاد جنوده عبر جبال البرانس واستولى على ناربون حيث اقام مقرا للقيادة العامة بقصد الزحف شمالا الى باريس وشرقا الى ايطاليا . لكن حظه لم يصمد طويلا . ففي عام ٧٣٢ التقى بجيش الفرنجة بقيادة شارل مارتل الملقب بالمطرقة قرب بواتييه . ونظرا لان العرب سبق لهم مطاردة هؤلاء الفرنجة بسهولة من نهر الدوردوني الى نهر الاوار ، فان القائد العربى بالغ في الثقة وغاب عنه ان يدرك ان شارل مارتل عمدا الى انسحاب استراتيجى من الارض المكشوفة حيث انعقدت المزية فيها للعرب ، الى مناطق الغابات حيث يقدون فيها قاصرين . ثم ان المعركة دارت في جو قارس البرد لم يكن العرب مهياين له ، وقد انتهت المعركة رغم هجمات العرب المتكررة بانكسارهم بعد مقتل عبد الرحمن .

لقد كانت هذه المعركة نقطة تحول في توغل العرب في اقليم الفرنجة ، وقد دب الشقاق والتحاسد بين العرب والبربر في جيش الخليفة . وعلى الرغم من توجيه حملات اخرى في وادي الرون والاستيلاء على افيينيون وفالانس وليون ، بل منها ما هدد باريس ذاتها - فان أوروبا قد استيقظت الآن تماما الى هذا الخطر . وبحلول عام ٧٥٩ استطاع شارل مارتل بمساعدة تعزيزات من لومباردي وغسقونية واقليم الباسك ان يقصى العرب الفاتحين الى خارج فرنسا وأن يوقفهم خلف جبال البرانس .

ان المد الاموي المتمثل في الفتوح الكبرى قد بدأ الآن ينحسر ، الى ان استهدفت الاسرة الاموية الحاكمة الى السقوط بسيف الانتقام الذي شهرته ثورة العباسيين .

عصر التفوق

الفصل الثامن :

الثورة العباسية

عندما انتزع مروان الثاني وهو من أبناء اخوة عبد الملك الخلافة من أيدي الخلفاء المترفين الضعاف الذين تعاقبوا على الحكم في أواخر عهد الأسرة الأموية ، شبت الثورات في كل جزء من أجزاء الامبراطورية ، بما في ذلك الشام ذاتها . وعلى الرغم من ان مروان كان بطبعه جنسدياً معارياً وقد استطاع بعد تعديلات جذرية أجراها في نظام جيوشه اخمد ثورات الخوارج ، والعلويين في غير عتاء كبير ، إلا انه اخطأ اذ ادار ظهيره للأميراطورية الشرقية وانسحب الى دمشق ، تاركاً نصر بن سسيار والياً على خراسان مع قوات أبعد ما تكون عن الكفاية والاقتدار .

ولم يكن مروان على خبرة بالولايات الشرقية المشيرة للقلقل والاضطرابات ، ومن ثم لم يكن على علم بالنار المضطربة في فارس والعراق . فهنا كانت تقلبات أشد خطراً من الثورات المحلية التي سحقها في العامين الأولين من حكمه . فان العلويين الشيعة لم يتحدوا فقط مع الموالى والطبقات المظلومة في الامبراطورية الشرقية، بل ان القبائل اخذت تتحد أيضاً وتدلى بدلوها مع المتمردين . كما أن الصراعات القديمة بين العرب من أهل الشمال وأهل الجنوب قد تنوسيت ، وحتى الأعداء القبليون

بالوراثة قد وحدوا قواهم للمشاركة في الاطاحة بحكامهم
الشاميين . وكان أخطر من هذا كله ان حزبا قويا جديدا
قد أقام نفسه على رأس هذه الثورة البازغة . فقد كان
العباسيون - الذين سموا بهذا الاسم لانتسابهم الى
العباس عم النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي أتاح النصر
في موقعة حنين - يمتون بقرابة وثيقة لنسل علي . ومع
انهم كانوا يخالفون العلويين في نظرهم الى الخلافة ، الا
انهم كانوا يشاطرونهم حقدهم على الأمويين . وهكذا كانوا
بضم ثقلهم الى طوائف الشائرين ذوى أثر فعال في خلق
القوة القاهرة الفلابة التي ستعمل على الاطاحة بالاسرة
الأموية .

كانت حركة العباسيين قد بدأت في عهد خلافة هشام
على يد ابراهيم بن محمد أحد حضرة العباس الذي كان
وقتئذ رئيسا للعشيرة العباسية . وكان ابراهيم يدير
عملياته من مخبأ ناء قرب البحر الميت ، مستخدما كرسول
للعلويين والخسوارج وغيرهم من المتمردين الأقوياء في
الامبراطورية الشرقية ، عبدا فارسيا سابقا يدعى « أبو
مسلم » . وكان أبو مسلم خراسانيا وقع في أسر الجيوش
الأموية وبيع في أسواق مكة الى ابن ابراهيم ، وكان متآمرا
بطبعه ويضممر أشد الكراهية لحكم الشاميين ، كما كان
يجيد الدعاية رغم ما ينطوي عليه من الختل والمخادعة ،
ولهذا كان أقدر داعية للثورة العباسية لدى العلويين
والشيعة والسنيين على السواء . ومما يسر مهمته ان
كثيرين من المستوطنين العرب في الشرق كانوا قد تزوجوا
من الأسر الفارسية واتخذوا اللغة الفارسية لسانا لهم .
ولكن فوق هذا كله فالى أبي مسلم ودهائه يرجع الفضل
في تناسي القبائل لخلافاتها في سبيل الهدف الأكبر وهو
استئصال شافة الاسرة الأموية الحاكمة .

وبحلول شهر مايو من عام ٧٤٧ استطاع أبو مسلم أن ينقل إلى إبراهيم استعداداته لتوجيه الضربة الأولى حالما يعطى مولاه الإشارة . فرد إبراهيم بالإيجاب ، وفي الشهر التالي نشر أبو مسلم الاعلام السوداء التي اتخذها شعارا للعباسيين وزحف إلى مر عاصمة خراسان . ومع أن جواسيس مروان تفتنوا إلى التراسل السري مما أدى إلى اعتقال إبراهيم ووفاته في السجن ، فإن جيش أبي مسلم من القبائل العربية والفلاحين الفرس تدفق خلال خراسان وعبر الحدود العراقية ، ورفرفت اعلام العباسيين السوداء من أسوار حصون نهاوند ومن قصر الوالي الأموي في الكوفة ، حيث بويغ في أكتوبر من عام ٧٤٩ أبو العباس شقيق إبراهيم أول خلفاء العباسيين . وقد تحرك مروان متأخرا ، ولكن كل شيء كان ضده الآن ، فقد رحب العراقيون بالعباسيين كمحررين لهم ، وعندما وصل جيش مروان في يناير من عام ٧٥٠ إلى نهر الزاب المتدفق بالفيضان وهو أحد روافد نهر الدجلة قرب الموصل ، ما لبث الجيش الشامي أن تفرق بددا ولاذ بالفرار هلعا من المذابح التي استفاضت بها شهرة أبي مسلم . وكان مصير الذين نجوا منهم من التقتيل والتدبيح الموت غرقا في النهر الفياض .

لقد أصبح الطريق الآن مفتوحا إلى الشام . وسقطت دمشق بعد حصار قصير . وانطلق العباسيون يطاردون مروان الذي هرب إلى مصر ، وقد وشى به بعض رجاله انقاذا لحياتهم ، وفيما بعد أرسل راسل آخر حكام الأمويين إلى ابن العباس مع شعار الخلافة .

وقد شرع نظام الحكم الجديد الآن في استئصال كافة آثار الحكم البائد . فأخذ يتعقب البقية الباقية من

الأسرة الأموية ويلدبجهم ذبحا . وقد دعيت جماعة منهم الى مأدبة أقامها عبد الله بن علي عم الخليفة الجديد وقتلوا تقتيلا اثناء المأدبة . واحد فقط من أعضاء الأسرة التي حكمت الشام معظم المائة عام الاخيرة استطاع الافلات ، هو عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام ، الذي فر الى اسبانيا وفيهسا أقام مجدا للأمويين نافس في أبيهته وثقافته بلاط هارون الرشيد المشهور . بل ان المونى لن يتركوا في سلام . فقد نبشت رفات الخلفساء الأمويين من قبورها وانتهكت حرمتها . وأحرقت عظام سليمان ، ومثلها جثمان هشام بعد جلده ثمانين جلدة . والواقع ان الخليفة الجديد الذي لقب نفسه في خطبته الاولى بلقب السفسفاح وعمه عبد الله ، بدا وكأنهما يتنافسان في القسوة والانتقام . ولأول مرة في تاريخ العرب ، اشتمل اثاث قاعة الاستقبال في قصر الخليفة حصيرا من الجلد استخدم كبساط للسياف ، الذي أصبح يقف دائماً على أهبة الاستعداد بجانب عرش مولاه .

وعلى الرغم من روح الحماسة التي حارب بهسا جيش أبي مسلم والاستجابة الفورية من جانب الجماهير الفارسية والعراقية للثورة العباسية ، فان مثل هذا الانجاز ما كان يمكن أن يتحقق لولا ان الأمويين قد دمروا أنفسهم الى حد كبير قبل رفع الرايات السوداء . فان الفساد كان قد حل منذ عهد سليمان البدين المتبذل . وغدت المادية والجشع تنخران في كيان الخسفسلافة وتستنزفان قواها . ويتدفق القنائم والكنوز من كافة الأرجاء تخطى الأمويون عن أساليب الحساسة الصحراوية الخشنة التي كان يحياها أبائهم ونسوا التعاليم الروحية للإسلام ، وانغمسوا انغماسا كليسا في شرب الخمر ،

والميسر ، وسباق الخيل ، والقنص بالسكلاب السلوقية
والفهود . بل ان الزنا الذي كانت عقوبته الموت أصبح
شائعا في الشام . وغدت المواخير تجارة رائجة بما يجلب
اليها من الجوارى من سبايا الحرب ، من يونانيات
وفارسيات وتركيات وافريقيات واسبانيات . بل قيل
في هذا ان الوليد الثاني كان يستحم بانتظام في بركة
من الخمر .

بيد ان الترف والانحلال لم يكونا وحدهما السبب في
توهين عزيمة الامويين واضعاف ارادة المقاومة عندهم
وتيسير الأمور امام العباسيين . فقد كانت سياسة اكثر
خلفائهم هي محاولة الحكم بأسلوب (فرق تسد) او
الايقاع بين العرب من اهل الشمال واهل الجنوب .
وبالطبع فقد سارع العباسيون يبنون للقبائل كيف كان
يجري استخدامهم لاستدامة سيطرة الشاميين عليهم .

والى جانب هذا كان الامويون قصار النظر الى حشد
بصيد في تمسكهم بنظام طبقي كان فيه العرب هم الطبقة
الارستقراطية الحاكمة ، والموالي في وضع المواطنين من
الدرجة الثانية . وقد أدى هذا الى اثاره الحفيظة والمرارة
في نفوس الموالى من أبناء العراق وفارس وجعلهم أداة
طبعة لاية حركة ثورية ، ولا سيما انهم كانوا اكثر ثقافة
بحكم اتصالهم السابق بالحضارتين البيزنطية
والفارسية .



ان الثورات كثيرا ما يكون لها أسلوب في التهساس
القائمين بها ، كما قدر لأبي مسلم والخوارج والعلويين
المنكودي الحظ أن يعرفوا عما قريب . وكان اول من
استهدف لهذه المعاناة هم الخوارج ، الذين أدى بهم
اعتقادهم بأن الخلافة يجب أن تشمل على مجلس منتخب

لا على حاكم معين مستبد - أدى بهم الى الثورة على النظام الجديد كما ثاروا من قبل على النظام القديم . فما كان من أبى مسلم الذى عين واليا على خراسان الا ان قاد جيشه ضدهم ، وقيل انه ذبح خمسين ألفا منهم قبل تهدة الأوضاع فى الولاية . لكن مثل هذه القصص البشعة عن مسلك أبى مسلم بدأت تنتشر وتتجسأوب أصسداؤها الى حد رأى معه حتى أبو العباس الملقب بالسفاح ان يبعث بأخيه أبى جعفر للتحقيق والاستقصاء . وقد أكد التحقيق كثيرا من أعمال القسوة المعزوة الى أبى مسلم ، كما كشف عن وجود أطماع خطيرة له بيتت لتنفيذها . وقد أوصى أبو جعفر الذى أزعجته نتائج التحقيق أخاه أبا العباس بعزل أبى مسلم ، بل بالقضاء عليه اذا تيسر . بيد ان الخليفة برغم ميله الى الأخذ بهذه المشورة خاف خوفا شديدا من ردود الفعل فى خراسان ، ولم يعمل بها .

وعند هذا الحد انتكس حظ أبى مسلم ، ففى غضون أشهر قلائل توفى أبو العباس بمرض الجدرى ، ونودى بأبى جعفر خليفة ملقباً بالمنصور . وقد حاول أبو مسلم جهده استرداد اعتباره لدى مولاة الجديد ، وعندما سمى عبد الله عم أبى جعفر الى منازعته فى العرش ، اندفع أبو مسلم من خراسان للدفاع عن الخليفة الشرعى . وكان محتما أن ينتصر أبو مسلم ، ولكنه أخفق فى أن يحرز الانتصار لنفسه . ففى طريق عودته الى خراسان دعى لزيارة بلاط أبى جعفر ، وهى دعوة أطماعها بلهف ، ظنا بأنها تنطوى على مكافأته عما فعل . ولكنه كان مخدوعا الى حد بعيد ، فانه ما كان يصل حتى بادر أبو جعفر باتهامه بجرائمه وتطلعاته ، وهى اتهامات عقوبتها الموت . ولدى اشارة معينة من الخليفة

انقض الحرس على أبي مسلم ومزقوه أربا وألقوا بجثته
المختلطة في نهر الدجلة .

وكان الدور التالي على العلويين الذين اقمهم
أبو مسلم بدعايته الموهبة بأن العباسيين إنما يخوضون
معركتهم هم أنفسهم . وبعد انقضاء عشر سنوات دون
ما اعتراف من النظام الجديد بمطالب العلويين ، قامت
ثورة في العراق والحجاز احتجاجا على ما عده العلويون
الآن اغتصابا من جانب العباسيين . وقد رد أبو جعفر
بلا رحمة ، فأخمد الثورة ، وأعدم زعماء العلويين .

وكان يمكن الظن بأنه القضاء على الأمويين والخوارج ،
ثم ما تلا ذلك من التخلص من أبي مسلم والعلويين ، فقد
ساغ لأبي جعفر أن يطمئن وأن يقضى بقية حكمه الذي
دام واحدا وعشرين سنة دون خوف من منافس .
ولكن يبدو أنه ما برح غير واثق من العرب أبناء جلدته
ومن خدمتهم بإخلاص لنظام حكمه . فانه منذ ذلك الحين
حرص هو ومن وليه مباشرة من الخلفاء على الاستعاضة
عن العرب بالفرس في أرجاء الخلافة . وقد نقل مقر
الخلافة من الشام الى العراق . وأدخل الشقراطية
الفارسية ونظم التعليم والعادات الاجتماعية ، وكف عن
اختيار حرس الخليفة وضباط الجيش من المصناد
العربية ، وجعل اختيارهم من خراسان ثم فيما بعد
من قبائل التركمان في الشرق . وكان لهذه التغييرات
الثورية أثر بفيض في قطاعات معينة من السكان العرب ،
الذين أصبحوا يشعرون أنهم غدا في الواقع ، وان لم
يكن شرعا ، مواطنين من الدرجة الثانية في امبراطوريتهم
ذاتها .

بيد ان هذا كان بالنسبة للموالي في فارس والعراق

فجر عصر جديد ومجيد . فان المدافعين منهم اى
العباسيين قد فازوا بنصر باهر ومكان تحت الشمس
للمظلومين من ابنا النصف الشرقى للامبراطورية ، وما هو
الا ان انتهى حمام الدم الذى كان فى البداية حتى شرع
نظام المحكم الجديد فى تطعيم ملكه بالابهة الفارسية .
وكان اول اعماله فى هذا الصدد هو اتخاذ عاصمة جديدة
له . ففى عام ٧٦٢ اختار ابو جعفر موقعا على نهر الدجلة
اسمه بغداد غير بعيد عن العاصمة الفارسية القديمة
طيسفون ، التى اتخذ من اطلالها محجرا لتزويد العاصمة
بمواد البناء . ونزعت ابواب دمشق والكوفة وواسط
المقل الحسرى للحجاج وارسلت لتركيبها فى المدينة
الجديدة ونقل من طيسفون كل شئ سوى القوس الضخم
لقصر الامبراطور الفارسى الذى تحدى كافة الجهود لنزعه
من مكانه .

والواقع ان التأثير الفارسى قد شمل بالتدريج كل
انماط الحياة العربية ، فاصبحت الالقاب فارسية ،
والزوجات فارسيات ، والاغانى فارسية ، والافكار
والمعتقدات فارسية .

وقد تجلت هذه المنازع الفارسية على اشدها فيما قام
به العباسيون من تغييرات دستورية . فقد ادخلوا المنصب
الفارسى للوزير ذى الصلاحيات الكبيرة ، وبهذا التعديل
للسلطة الزمنية الذى طرا على نظام الخلافة ، اصبح
الخليفة اقرب الى ان يكون الرئيس الروحى للدين
الاسلامى ، بينما تدار شئون الدولة بيد رئيس
الحكومة .

وكان اول من شغل منصب الوزير هو خالد بن برمك ،
الذى كان ابوه كبيرا للكهنة البوذيين فى بلخ فى خراسان

الشرقية ، وقد ورثه أبو جعفر من أخيه أبي العباس الذي توثقت بينهما العلاقات الشخصية الى حد أن زوجتيهما كانتا تتبادلان ارضاع أطفالهما . وكما كان الحال مع أبي العباس فكذلك أصبح البرمكي المسلم صديقا حميما لأبي جعفر ومستشارا خاصا . والواقع ان نفوذ خالد بن برمك هو الذي حفز على دراسة وتسمية الفنون والعلوم اليونانية والفارسية التي جعلت من العاصمة الجديدة واحدة من أكبر المراكز الثقافية في العصور الوسطى .

ولم يكن أبو جعفر بطبيعته مثقفا ولا منحاذا الى اللهو ، ولكنه كان أقرب الى الزهد والتشوف ، وكانت له مواهب رجل الدولة والسياسي المقتدر ، وقد هيات له هذه الصفات ان يمنع الخلافة أكثر من ثلاثين عاما من السلم . واستطاع بمقدرته ان يكبح كل تهديد لسلامة الدولة ، بل ان يوسع حدود الامبراطورية في الشرق باضسافة طبرستان الولاية الجبسية جنوبى بحر قزوين وكذلك قندهار على الحدود الهندية الى رقعة الدولة . وقصد تهيأ للخلفاء العباسيين بفضل يقظته ونشاطه ان يلبقوا بالخلافة منذ عهد الى عهد ارتقاء حفيده هارون الرشيد ذرى من المجد والأبهة لم ينل منها سرطان الحروب الأهلية . ان اسم هارون قد يتصدر المع فصل فى تاريخ العباسيين ، بيد ان أبا جعفر هو مؤلف المقدمة .

وكان الشغل الشاغل لجعفر الى جانب شئون الدولة هو تأسيس أسرة حاكمة من نسله ، على غرار ما فعل معاوية من قبل . وفى هذا السبيل لم يتورع عن استخدام أفتك الأسلحة لضمان الخلافة لولده محمد . فان أبا العباس كان قد أوصى بالخلافة بعد وفاة أبي جعفر لابن أخ له هو عيسى بن موسى . وقد حاول أبو جعفر أول

الأمر التخليص من عيسى بالسهم ، وعندئذ لما فشل وجاء
 بشهود أقسموا أنه لم يكن ثمة عهد بين أبي العباس وابن
 أخيه ، ولكن عيسى استنجد بشهود أكثر شهدوا إلى
 جانبهِ . فأمر الخليفة بإحضار ابن عيسى أمامه ، وعلى
 مرأى من الأب قيسد الابن ، وأرغمه على الركوع فوق
 بساط الأعداء ، وعندئذ طلب أبو جعفر من المتطلع إلى
 العرش والسياف قائم فوق رأس الضحية أن يفتن هذه
 الفرصة الأخيرة فيسحب مطلبه وينقذ ولده . وقد كان
 لهذا التهديد الوحشي أثره المنشود ، وانسحب عيسى
 وولده إلى ضيعة قريب الكوفة مع منحة مالية جزيلة .
 وعندما توفي أبو جعفر عام ٧٧٥ هـ ، وفي طريقه إلى مكة
 للحج ، ولي محمد الخلافة . وهكذا حقق أبو جعفر
 مظهره الأكبر ، وأسس الأسرة الحاكمة التي تعاقب فيها
 خمسة وثلاثون من الخلفاء العباسيين زهاء خمسمائة
 عام ، إلى أن زحفت جحافل هولاكو خان ودمرت بغداد
 تدميراً .

الفصل التاسع :

البعث الأموي في أسبانيا

بينما كان أبو جعفر يعمل على دعم الخلافة العباسية في الشرق بمثل هذا التدقيق ، كان يجري في أسبانيا تحول بالغ تحت قيادة عبد الرحمن أول أمير لقرطبة ، ففي السنوات الأخيرة لحكم الأمويين كانت الجيوش الإسلامية في القرب قد منيت بانتكاسات خطيرة جعلت سيطرتهم في أسبانيا تقتصر على الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة . وكانت الخلافات الداخلية تمزقهم شر ممزق ، وامتدت الأحقاد القديمة بين عرب الشمال وهرب الجنوب إلى أسبانيا ، وكانت قبائل البربر دائمة الانتفاض والتمرد على حكم العرب بسبب هضم حقوقهم ومعاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية . ولم ينقص المستوطنين العرب من الفناء سوى مجيء جيش من سبعة وعشرين ألف مقاتل أرسل من الشام لمحقيق ثورة البربر . وقد استوطن القادمون بدورهم البلاد فيما بين أشبيلية وجاين والجزائر والقيرا . ولكن نذر الثورة تعالت من جديد بعد أن وفرت رايات العباسيين السوداء على انقراض الخلافة الأموية . وبينما كان يوسف الفهري أحد الحكام من سلالة عقبة بن

نافع منهما في اخماد واحدة من حركات التمرد ، اذ جاءت الانباء بأن اميرا شابا من الأمويين هو عبد الرحمن بن معاوية قد هبط الى الأرض الاسبانية قرب قرطبة بقصد الاستيلاء على الامارة .

كان عبد الرحمن في العشرين من عمره عندما قضى المباسيون على أسرته ، ولكنه استطاع الإفلات بمعجزة حتى وصل بعد رحلة طويلة شاقة ذاق فيها الأهوال الى سبته في عام ٧٥٥ والتجأ الى بعض البربر من اقارب أمه .

وقد شرع على الاثر في العمل لكسب اسبانيا الى صف الأمويين . ومن حسن حظه أن العرب في اسبانيا تناسوا خلافاتهم واتحدت رغبتهم في التخلص من يوسف ، وأبدوا تمام استعدادهم في الانضواء تحت لوائه لتحقيق هذه الغاية . ولما أدرك يوسف مدى قوة هذا المنافس الخطر حاول اكتسابه الى جانبه بالرشى والوعود ، بما في ذلك تزويجه من ابنته ، ولكن عبد الرحمن تجاهل هذه العروض وزحف مظفرا مرحبا به الى اشبيلية وارشدونا وسيدونا . وعندئذ لم يكن أمام يوسف سوى القتال أو الهرب . فقرر أن يقاتل ، وزحف من عاصمته قرطبة حتى التقى بجيش عبد الرحمن على ضفاف نهر الوادي الكبير في صباح الرابع عشر من شهر مايو عام ٧٥٦ . وكان النصر حليف عبد الرحمن الذي دخل قرطبة مظفرا بعد فرار يوسف .

وهنا اثبت الأمير الشاب انه رجل دولة وذو روح انسانية كما هو جندي باعلان العفو العام وتحريم السلب

والنهب . بيد ان سيادته على قرطبة لم تجعل منه حاكما
غير منازع لكل اسبانيا الاسلامية . فمن ناحية ظل يوسف
يشير القلاقل مدينة طليطلة مدى ثمانية أعوام ، الى ان قتل
في النهاية وتم الاستيلاء على طليطلة عام ٧٦٤ . ومن
ناحية أخرى فان البربر الذين وقفوا اول الامر موقفا
سلبيا ما لبثوا ان عاودوا تدميرهم من مقام توزيع الاراضي
الذي رأوه مجحفا بهم ، وأخذوا يقارمون الحكم العربي
عشر سنوات أخرى . ثم كانت هناك محاولة الخليفة
العباسي أبي جعفر للاستيلاء على اسبانيا لصالح
العباسيين ، والتي انتهت عام ٧٦٣ بقطع رأس مبعوثه
المذكود وأرساله الى بغداد محفوظا في الملح والكافور
وملفوفة بالراية السوداء . وفي ختام هذا كله ، في
عام ٧٧٧ ، سعى شارلمان امبراطور الفرنجة الى التحالف
مع صهر يوسف وبعض زعماء القبائل العرب المنشقين في
منطقة برشلونة وزحف لهاجمة عبد الرحمن في قرطبة .
لكن شارلمان لم يستطع التقدم الى أبعد من سرقوسة ،
التي أغلقت أبوابها في وجهه وبدأت تقاومه ، وألقى نفسه
هدف الهجوم من كل جانب . فقد زحف عليه عبد الرحمن
من الجنوب ، وتعرض جناحاه لمضايقات شديدة قام بها
جيش من ثوار الباسك الذين عانت أسرهم من حكم
الفرنجة والقوط . وهكذا انسحبت قوات الفرنجة شمالا
عبر جبال البرانس تاركة آلاف القتلى في مفاوزها
وكهوفها الفادرة ، بما فيهم زعيمهم المشهور رولان الذي
خلد الادب الفرنسي موته البطولي في « أغنية رولان » .

وبهذا الانتصار أصبح الأمير الأموي أخيرا قادرا على
توجيه نشاطه من القتال الى اصلاح الحكم في اسبانيا

الإسلامية ، وإلى توحيد طوائف العرب والبربر المتحاربين
دون خوف من الهجوم عليه سواء من داخل الإمارة أو
خارجها ، فقد تحدى أقوى الحكام في الشرق والغرب
وأثبت أنه ندا لهم ، وعمل على توطيد السلم والنظام
والاستقلال في إسبانيا . وتهيأ له بما أغدق على البربر
في شمال إفريقية وإسبانيا أن يجعل من هؤلاء الذين
جبلوا على التمرد وأثارة القسلاقل جيشا منظما جيد
التدريب قوامه أربعون ألف مقاتل .

بيد أنه برغم هذه الانجازات كلها لم يعمد قط إلى
اتخاذ لقب الخليفة . بدلا من ذلك كان معروفا في كافة
أرجاء ملكه باسم أمير إسبانيا . وبالمثل ظل خلفاؤه على
مدار زهاء قرن ونصف بعد وفاته يتخذون هذا اللقب .
ومهما يكن فإن مكان عبد الرحمن في التاريخ لا يعود إلى
لقبه . وإنما إلى التراث الجمالي والابداعي الذي خلفه في
إسبانيا . فإن هذا التراث لم يضربا فقط الأبهة
الفارسية التي اتسمت بها الخلافة العباسية ، ولسكنه
ظل أيضا أثرا باقيا شاهدا على الفن والعمارة العربية على
مدار مئات الأعوام بعد ما دمرت أسجاد بغداد وعدت عليها
عوادي النسيان ، وعبر العديد من القرون قبل مساس بدات
أوروبا تقيم لنفسها تراثا ثقافيا خاصا بها .

لقد شرع عبد الرحمن بعد استتباب السلم والأمن من
الفز في إسبانيا في تنمية مواردها بنشاط وعزم .
فبنيت القنوات المائية لتزويد مدن الإمارة بالمياه النقية ،
ونهدت مشروعات الري ، وأدخلت نباتات وفسوسواكه
كالخوخ والرمان . وفي عام ٧٨٦ ، أي قبل وفاته بعامين ،

شيد مسجد قرطبة الكبير . منذ القرن السادس عشر
قد ضم هذا المسجد بين جنباته كاتدرائية رومانية
كاثوليكية ، ولكن على الرغم من هذا ومن ازالة كل اثر
لممارسة شعائر الدين الاسلامي في اسبانيا مدى قرابة
اربعمائة عام ، فما يزال هذا المسجد الكبير يشار اليه
على لافتات المدينة وفي الدليل الرسمي بأنه « المسجد » .

بل ان عبد الرحمن عمه الى أكثر من تجميل المسكن
وبناء المساجد . كان يمتاز بعدل موفور وروح ديمقراطية ،
ومن ثم قصد الى منح شعب الامارة قانونا للعدالة .
قبل الفتح الاسلامي كان النبلاء القوط ورجال الدين
يتمتعون بكل السلطة وبكافة الامتيازات ، وكان الفلاحون
يعيشون طبقا لاهواء حكامهم . فالفى عبد الرحمن هذه
المظالم ومنح الفلاحين الاسبان قانونا للحقوق والحماية
القانونية لم يحظوا قط بمثله من قبل ، فلا غرو اذا كان
بعض المؤرخين القريبين مثل رينهارت دوزي قد أقر بأن
« الفتح العربي لاسبانيا كان نعمة لها » .

ومن سوء حظ اسبانيا والعرب ان عبد الرحمن لم
يفسخ له في الاجل بعد الثامنة والخمسين لى يواصل
أعماله الاصلاحية . وكان أولئك الذين أعقبوه في الحكم
خلال السنوات المئة التالية فريقا هزيلا بالمقارنة اليه ،
انصرفا عن شئون الحكم والاصلاح الى الصيد والمبازل ،
وبينما اثمرت جهود عبد الرحمن ثمارها وأخذ اقتصاد
اسبانيا يزدهر ويزداد ، فان خلفاءه انحازوا الى اجتناء
الثراء والخمول ، وأدخلت الانماط والعادات الفارسية
من بلاط هارون الرشيد ، واستبد بالحكام ذلك الافتتان

المستطير بالترف الذي ساعد على تقويض الأسرة الحاكمة
الأم في الشام . وما لبث البربر أن عادوا إلى سالف
ديدهم من الانتفاض محاولين الاستيلاء على الإمارة .
وبانتشار روح التمرد والثورة بدأت الولايات تنسلخ من
حكم قرطبة وتعلن استقلالها .

لقد تسنم العرب في عهد عبد الرحمن ذي القسوة
والشهرة . وفي عهد ابنائه أخذوا الآن ينحدرون سراعا
إلى الهاوية .

الفصل العاشر :

ألف ليلة وليلة

في غضون أقل من عشر سنوات بعد وفاة أبي جعفر ، طمرت الخلافة العباسية من ربيع مزهر الى صيف متالق . لقد أصبح هارون الرشيد ، حفيد أبي جعفر ، هو الخليفة ، وبدأ عصر ألف ليلة وليلة . وإذا كانت الخطى أسرع من المعدل الطبيعي ، وكانت حرارة الصيف تندب في تضاعفها بأعاصير قادمة ، فان أحدا لم يظن اليها أو لم يحفل بها . ان دروس الامبراطورية الرومانية قد تنوسيت أو لم يتعلم منها أحد . وانغمست بغداد في الأبهة والترف ، غير مبالية بالغد .

لقد جمعت الثروات ، وكان المال ينفق على نطاق يفوق ما ينفقه آل روتشيلد وروكفلر في العصر الحديث . ومنع هارون أخاه إبراهيم وكان مفضيا محترفا أكثر من مليوني دولار ، بالعمل الحاضرة ، سخاء وكرما . وكذست أسرة البرامكة . الوزراء بالوراثة لدى أبي جعفر وهارون . ثروة خيالية قيل انها تجاوزت ثلاثين مليون دولار . وذكر ان أم هارون نالت أكثر من أحد عشر مليون دولار كانت تنفقها على زينتها وقصورها . واكتسبت زبيدة الحسناء زوجة الخليفة شهرة أسطورية في الاتفاق مثل الخليفة ذاته . وفي قصور الخلافة التي كانت تحتل ثلث المدينة

كانت تصر على ألا يشرب ضيوفها إلا في كنوس من ذهب
أو فضة مرصعة بالجواهر . وحتى أحديثها كانت تزدان
بالأحجار الكريمة ، وقد ذاع أنها في رحلة حج إلى مكة
أنفقت ما يربو على مليونين ونصف مليون دولار .

وكما كان الحال في أواخر عهد الخلفاء الأمويين ، كانت
نساء الطبقة الراقية يتمتعن بقدر كبير من الانطساق
والتححرر ، وينافسن الرجال في التدخل في شئون الدولة ،
ويتحفن المجتمع بأحاديثهن الطلية ومواهبهن الموسيقية .
وقد شاع التبذل لكثرة عدد الجسوارى والاماء
وساد الترف بيوت الأغنياء إلى حد لم يعرف له مثيل
في العصور الحسنة حتى في قصور ملوك البترول
الاقطاعيين . وكانت البيوت تبرد بالثلج ، وأدوات المائدة
لا تقل بحال عن الفضة ، وقطع الأثاث تطعم جميعها
بالابنوس واللؤلؤ . وكان للأمين ابن هارون ثلاثة قوارب
كبرى على أشكال الأسد والدلفين والنسر ، تكلف كل
منها أكثر من مائتى وثمانين ألف دولار ، صنعت لرحلاته
النهرية . وكانت الخمر تشرب علنا ، بينما كانت الأغاني
وقصائد الشعر في مدح الخمر تتردد في حجرات تعبق
بالعنبر المحترق .

بل ربما كانت فارس والعراق أشهر منهما اليوم
بشروتهما في الأثاث والمنسوجات . كانت الأقمشة
الحريرية المزدانة بخيوط الذهب تصنع في إقليم « فارس »
من أجل سيدات البلاط . وكان قمصاش « التافتاه »
الحريرى الذى ينسج في فارس كثير الانتشار ويصدر
بمقادير كبيرة إلى أوروبا . ومن بخارى إلى دمشق كان
يصنع كل شكل من الأثاث والأدوات المنزلية . من الأرائك
إلى المقصات ، ومن الدمقس إلى الأقداح المعدنية . وكانت

صناعة الزجاج فى الشام والورق فى سمرقند أول ما صدر من هذه السلع الى العالم الخسارجى . وكان الزجاج الملون الذى جاء به الصليبيون لأول مرة الى أوربا تقليداً للأنواع المظلية بالميناء المصنوعة فى الشام . أما عن الثروة المعدنية فإن ثروات الخلافة فيها كانت تجاوز الحصر . كانت كل جوهرة تتحلى بهسا سيدات المجتمع العباسيات مما يسهل وجوده فى نطاقهسا - الذهب والفضة من خراسان ، واللؤلؤ من البحرين ، والياقوت واللازورد من بلاد ما وراء النهر ، والفيروز من نيسابور ، والانتيمون من أصفهان . وكانت الشام تنتج الرخام والكبريت ، وفرغانة تزود بالزفت والغاز والزئبق .

وكان الشطرنج ، المستورد من الهند ، والثرى ، هى الألعاب المفضلة لدى الأغنياء . وكان البولو ، المجلوب من فارس ، والرماية بالسهم ، وسباق الخيل ، والصيد ، هى الرياضات الرئيسية خارج الدور . وكانت المراهنة على السباق تجرى حامية ، وتدور بمبالغ كبيرة . أما عن القنص ، فقد أدخل فى تدريب الصقور من فارس - وهى عادة ما زالت باقية الى اليوم فى الأردن والسعودية والخليج العربى .

ومن وراء كل هذا الترف والثراء قامت تجارة رائجة وصناعة مزدهرة . فقد كانت مئات السفن النهرية من كل أنحاء الامبراطورية الشرقية ترسو على امتداد أرصفة بغداد والبصرة ، من الصين حتى أفريقية ، محملة بالحرير والعطور والصينى والأصباغ والتوابل والياقوت واللازورد والفراء والعساج والعبيد للبيع فى أسواق العاصمة ، حيث كانت الحيوانات تجمع بعضها مع بعض حسب نوع التجارة أو الحرفة - فالصاغة فى شارع ،

والخياطون فى آخر - كما هو الحال اليوم . وكان التجار العرب ، ومنهم السندباد البحرى الأسطورى ، يحملون الى الشرق الأفريقى والى أوربا وشمالا حتى روسيا ، الأرز والحبوب والكتان والحريير والعطور واللؤلؤ والزجاج والمعادن والسكر والفواكه والخضر ، وهى منتجات مصر والشام والعسراق والخليج العربى والوديان الفنية الخضراء فيما بين بخارى وسمرقند . وغالبا ما كان هؤلاء التجار يحملون أيضا رسالة الاسلام ، التى تأهلت فى جنوب شرق آسيا ، وعلى الأخص فى الجزر التى تتكون منها اليوم دولة اندونيسيا .

وكان فى الامبراطورية العباسية أيضا مستوى رفيع للخدمة الاجتماعية والصحة العامة ، فقد كانت العاصمة وحدها تفخر بأن بها سبعة وعشرين ألف حمام عمومى . وقد تقدم الطب والصيدلة تقدما سريعا . وأقيم نظام للامتحانات لمن يمارسون الطب والصيدلة لمنع استغلال الدجالين للجمهور . ويقال أن فى العاصمة وحدها اجتاز هذه الامتحانات أكثر من ثمانمائة طبيب . وقد أدخل نظام تشريح الحيوانات للأبحاث الطبية فى وقت مبكر فى القرن التاسع ، وظهر لأول مرة كتاب تعليمى عن طب العيون . وقد أنشئ أول مستشفى فى العاصمة على يد هارون ، وأعقبه انشاء أكثر من ثلاثين مستشفى فى شتى أرجاء الخلافة ، وقد زود كل منها بمستوصف ، وفى بعض الحالات بمكتبات طبية وتسهيلات تعليمية لكلية الطب .

وكان رجال الطب المسئولون بصفة أساسية عن هذا التقدم فى الطب والكيمياء هم جابر بن حيسان وأبو بكر الرازى ، وقد أطلق على جابر السدى جاء من الكوفة بالعراق لقب « أبو الكيمياء العربية » . وبسبب نزواته

الحماسية في التجارب ، فقد عمل على تطوير النظريات
الكيمائية اليونانية والمصرية ، وعلى الأخص نظريات
أرسطو ، في مجال العناصر وتحويل المعادن الخسيسة .
وبفضل أبحاثه حدث تقدم كبير في عمليات التكلس والتبخر
والذوبان والتبلور . وقد ترجمت مؤلفاته ، التي لا يزال
باقيا منها حتى اليوم أكثر من عشرين مؤلفا ، الى اللاتينية
وظلت عدة مئات من السنين بعد وفاته ذات تأثير
بالغ في معامل أوروبا وآسيا . وكان أبو بكر الرازي وهو
فارسي من الري قرب طهران أكثر تأثيرا ، وقد وصف
بأنه « أكثر أصالة من كافة الأطباء المسلمين وأوفر
خصبا كمؤلف » . ومن بين مؤلفاته التي تجاوزت المائة
عديد من الكتب في الكيمياء ترجمت الى اللاتينية واحتلت
مكانة مرموقة كمصدر للمعرفة الكيميائية في أوروبا على
مدار الخمسمائة عام التالية . وبالمثل كانت تقاريره عن
الجدرى والحصبة تحتل الأولوية في مجالها ، وقد
ترجمت الى اللاتينية فكانت أعلما للأطباء الأوربيين .
وكانت أهم أعماله على الإطلاق موسوعته الطبية الشاملة
التي استخلصها مما تلقاه العالم العربي من مصادر يونانية
وفارسية وهندية ومن أبحاثه الخاصة ، فأصبحت
واحدة من أبرز المخصصات في علوم الطب ، وقدر لها
أن توجه وتؤثر في الفكر والبحث الطبي في الغرب مدى
قرون تالية .

وقد بدأت الزراعة تزدهر بعد طول امراض ، فانتجت
الأرض محاصيل وافرة من الشعير والقمح والأرز
والتمر . وكانت مصر والشام وخراسان والوديان الخضراء
حول بخارى وسمرقند تنافس العسراق في الخصب
والإنتاج . وكثير من منتجاتها جاء به الفاتحون العرب
الأوائل للهند وآسيا الفريزية ، وغدت الامبراطورية تنتج

كل فاكهة وخضر مما نأكله اليوم ، من البرتقال الى
قصب السكر ، ومن الزيتون الى البطيخ .

وكان الخليفة هارون الرشيد هو الذى يتربع فوق
ذروة هذا الشراء الاكبر والرقاهية البالغة ، والذى كان
يحتل فى النفوذ والمكانة منزلة تفوق كل سائر الحكام
شرقا وغربا ، باستثناء شارلمان . بل ان شارلمان كان مدركا
بما فيه الكفاية لقوة الخليفة الى حد تبادل السفراء
معه والتلميح الى عقد تحالف يمكن ان يخدم مصلحتهما
المشتركة بتهديد البيزنطيين والامويين فى اسبانيا ، وهما
منافسان على التعاقب له وللعباسيين . ولقد علا شأن
هارون لأول مرة وهو فى العشرين من عمره خلال حكم
والده محمد ، حينما قام العباسيون بأول هجوم لهم على
جيرانهم الروم على أمل استغلال حالة السلم والانسجام
السائدة فى الامبراطورية للتخلص من التهديد البيزنطى
فى آسيا الصغرى وقد تولى هارون مصحوبا بخالد بن
برمك الوفى قيادة طليعة جيش الخليفة ، الذى توغل
حتى البسفور . وهناك أجبر الملكة ايرين الوصية على
العرش على توقيع معاهدة ودفع الجزية لجيوش
الخليفة . وكانت هذه رابع وآخر مرة وقف فيها جيش
عربى أمام أسوار القسطنطينية .

واذ عاد هارون بفنائم هائلة واستقبل استقبال
الابطال ، كافاه والده المشغوف به بلقب « الرشيد » .
ويبدو ان الافراط فى التبذير بعد هذا النجاح قد لعب
برأس هارون ، فانه اطلب الى اخيه الاكبر موسى ان يتخلى
عن حقه فى ولايته الخلافة . فأبى موسى ، وعندما توفى
محمد عقب ذلك مباشرة وافق هارون على عدم الالحاح
فى مطلبه . ولكن أمهما ، وهى جارية فارسية سابقة

كان محمد قد اعتقها وتزوجها لكي يسبغ الشرعية على ولديه ، كانت أكثر طموحا لولدها المفضل هارون مما كان هو لنفسه . وعندما استجاب موسى لانكار الذات من جانب أخيه بتعيين ولده خلفا له ، وضعت الأم حدا للخلاف بتسميم موسى ، ولم يجد هارون الذي لم يكن قد جاوز الرابعة والعشرين من عمره صعوبة تذكر في اقناع ابن موسى بالتنازل عن الخلافة ، وفي عام ٧٨٦ بدأ حكم أشهر خليفة في الاسلام .

وكلما أمعن المرء في دراسة حياة وخلق هارون الرشيد ، كلما بدا أنه استأثر من المؤرخين المحسدين بتأثير مقنطيسي . وليس من شك في أنه كان حاكما قديرا ، وان كان قاسيا وغيورا . بيد أنه لم يكن بأي حال فذا . فبفضل تفاني أبي جعفر وجهوده الدائبة ، ورث هارون امبراطورية يسودها السلم ، ولها مقومات ثقافية وأدبية أصبحت الآن مناط الحسد من الشرق والغرب ، وقد تقلد مكان القمة في هذا الميراث بما يقتضيه من أبهة وزهو . لكن من العسير أن يجسد المرء أي شيء فعله لاثراء امبراطوريته أو توطيد مقوماتها . فان ممتلكات الخلافة عند وفاته كانت اقل منها عند ولايته . وقد كان لحملاته التالية ضد البيزنطيون تأثير عكسي ، وتحطم السلم والانسجام اللذان ورثهما بسلسلة من الثورات الدموية خلال الشطر الأخير من حكمه . وكانت علاقاته الشخصية تفشاها في أحيان كثيرة الفيرة والشمسكوك ، لتافهة حيال أوثق اصدقائه ، وحتى أسرته .

أما معاملته الأسيرة البرامكة الذين كانوا مثال الخدام الاوفياء الأمناء لثلاثة أجيال من الخلفاء ، فلا يمكن وصفها إلا بأنها كانت لونا من جنون العظمة . كان وزيره هو

يحيى ، ابن خالد البرمكى وزير أبى جعفر المخلص ، ذلك
دن هارون حدا حدو جده فى الاعتماد على الفرس بصفة
عامه وعلى اسره البرامكة بصفه خاصه فى تصريح شئون
حكومته . ولم يسبق أن تهايا لأحد من الخلفاء نصير أوفى
من ابن خالد الذى قاوم بعناد وصلابة خطة موسى فى
تعيين ابنه فى مكان هارون حتى لقد زج به فى السجن جزاء
هذا التحدى . كما أن دين الخليفة للبرامكة لم ينته عند
هذا الحد ، فان واحدا من أبناء يحيى ، وهو الفضل ،
كان معوانا فى قمع محاولة العلويين للاستيلاء على طبرستان
وانتزاعها من الامبراطورية . وهناك ابن آخر ليحيى ،
وهو جعفر ، وكان شابا موفورا الوسامة قد أصبح صديقا
حميما لهارون حتى كان الخليفة وجعفر لا يكادان يفترقان
وعندما تقدمت السن بيحيى حتى ناء بالوزارة ، لم يكن
مشارا للدهشة أن يعين هارون جعفر فى هذا المنصب .

ولقد بلغ من تعلق هارون بصفيه جعفر ومبالفته فى
تكريمه والاغداق عليه أن زوجة أخته العباسية .

ولكن هذه الصلات الوثيقة لم تشفع للبرامكة عندما
اشتد جنون العظمة بهارون وطففت عليه الشكوك والفيرة .
فبعد سنوات لم يطل أمدها انقلب على صفيه جعفر فأطاح
برقبته تحت سيف الجلاد ، ومن قبله أخته العباسية
زوجة جعفر ، وفى سورة جنون تملكته أقسم أن يهلك
أسرة البرامكة جميعا . فزج بيحيى الشيخ وابنه الفضل
فى السجن وصادر ممتلكاتهما . وقد مات كلاهما فى
السجن ، وبموتهما انقرض كل أثر لأسرة البرامكة التى
كانت مثال التفانى فى خدمة أسرة العباسيين .

ولقد قيل أن التندم استحوذ على هارون حتى لقد
أمضى الأعوام الستة الأخيرة من حكمه وهو يحسبكم

الامبراطورية من قصره الصيفي ، حيث عاش في غمرات
الذهول والتعاسة . بيد ان التندم لم يكره من شأنه ان
يرقق من طبيعه . فقد استحال في العزلة التي فرضها
على نفسه الى انسان اشد قسوة ، حتى ان المحيطين
به ، وفي عدادهم ولداه ، أخذوا يتآمرون عليه .

ولقد ووجه في أخريات عهده بثورة خطسية في ولاية
خراسان . فقام على رأس جيش كبير في عام ٨٠٨ رغم
اصابته بالسرطان لمحاربة المتمردين الذين كانوا بقيادة
رافع ابن الليثي حفيد نصر بن سيار آخر الولاة الامويين
على خراسان . وكان رافع الذي سجن لاثامه بالخروج
على تعاليم الاسلام لزواجه من سيدة سعت الى الطلاق
من زوجها السابق بتخليها عن الديانة الاسلامية . قد فر
من سجنه ورفع لواء الثورة . كان ذلك أكثر مما يحتمله
هارون ، بعد أن منبت الامبراطورية بخسائر جسيمة في
أفريقية وآسيا الصغرى . ففي عهد والده انفصلت
المغرب عن الخلافة تحت زعامة ادريس أحد الباقيين على
قيد الحياة بعد ثورة ابراهيم في البصرة عام ٧٦٢ . وفي
عهد هارون أعلن الحكام المحليون في القيروان استقلالهم
أيضا ، وفي آخر المطاف تمكن الامبراطور البيزنطي - من
طرد الجيوش العربية الى خارج الاناضول ، فكان فقدان
جزء من الامبراطورية الشرقية أكثر مما يطيقه هارون .

واقد تمكن هارون من القضاء على ثورة رافع واسره .
وفي هذا الوقت كان هارون يقضي نحيبه ، بيد انه أصر على
أن يجاء اليه بالاسير للاقتصاص منه . واذا هو راقد
في مضربه وحياته تتسرب ببطء ، استسلم لعملية شيطانية

اخيرا ، فقال لرافع : « سوف تقتل كما لم يقتل احد من قبلك » . وجرى تمزيق رافع وبتير اجزاء جسمه جزءا جزءا ، والقائها واحد تلو الآخر تحت قدمي الخليفة ، ولم تمض ساعات معدودة حتى لفظ هارون ايضا انفاسه ، وكان في الامبراطورية كثيرون ، منهم اولئك الذين كانوا الصق من غيرهم بالعرش ، تنفسوا الصعداء لرحيله .

الفصل الحادى عشر :

التصير الذهبي للعباسيين

ان اية آمال فى ان ذهاب هذا الطاغية الفيور يمكن ان تحل عهدا جديدا من السلام سرعان ما تبددت بعنف . ففي غضون ثلاثة أعوام تمزقت الخلافة بصراع مريع دموى بين ابنى هارون : محمد الأمين : وعبد الله المأمون .

لقد خلف الأمين أباه لسبب وحيد هو انه كان وحده دون أبناء هارون الأحد عشر من زوجة شرعية . أما الباقون فقد أنجبهم من الجواري ، وكانت أم المأمون واحدة من عشر جاريات أهدتهن اليه زوجة زييده لإبعاده عن مغبة افتتن بها الخليفة . وكان الأمين موفور القوة الجسدية فارغ العود ضخيم الهامة ، حتى قيل انه قتل أسدا بخنجره عندما أفلت من عقاله وهجم عليه وهو يحتسى الخمر .

ولكن قوة الأمين الجسدية لم تناظرها حصافة ونباهة فى فن الحكم ، ويبدو أنه ورث عن أبيه أيضا طبعه المتشكك . وكان بصفة خاصة يرقاب فى أخيه المأمون الذى كان قد عين قبل وفاة هارون عام ٨٠٩ واليا على خراسان . وقد أكد الأمين هذا التمييز لابقسائه بصفة خاصة بعيدا عن العاصمة . بيد انه حتى على هذا البعد لم يشعر بالأمان التام ، فأمر المأمون بإعادة جيشه الى

العراق . فرفض المأمون ان يترك نفسه اعزل ، وخامرته الشكوك بدوره في أن الأمين يهدف الى سلبه نصيبه من وصية أبيهما ، وقد اتجه الى الخرسانيين لكي يشدوا أزره ، ولما كانت أمه فارسية فان ذلك كان مزية لصالحه عندما عزله الأمين من منصبه ثم أرسل جيشا من أربعين ألف رجل للقضاء عليه وعلى مؤيديه . وقد أيدت حملة الأمين عنسند الري قرب طهران على أيدي قوة من الخرسانيين تناهز عشر عدها تحت قيادة طاهر بن حسين قائد المأمون ونصيره الرئيسي .

كان الدم يغلي الآن في عروق المأمون . لقد طلب أخوه الحرب ، ولسوف يعطيه ما طلب . وفضلا عن هذا فانه اذا لم يقض على الأمين فسوف يقضى عليه هو نفسه . وهكذا أمر طاهرا بالزحف الى بغداد مصحوبا بجيش آخر تحت قيادة هرثمة ، القائد العباسي السابق في شمال افريقية .

والواقع ان الولاء كان شيئا نادرا في بغداد في تلك الأيام ، فعندما وصل جنود طاهر امام العاصمة في عام ١٨١٢ ، رحبت العراق كلها من البصرة الى الموصل بالمأمون ونادت به خليفة ، وبدأ جنود الأمين يهجرونه الى جانب الفزاة . وبعد حصار شديد ومعارك طاحنة دامت أربعة عشر شهرا رهيبة ودمر فيها طاهر وهرثمة أسوار العاصمة ، كانت المدينة ذاتها خرابا وانقاضا عندما سقط في أيدي المهاجمين ، وقد قتل الخليفة بأيدي رجال طاهر وحز رأسه وأرسل الى المأمون .

وهكذا بدأ حكم المأمون وهو أزهى عصر في تاريخ العباسيين وبغداد قد دمرت تدميرا ونصف سكانها قد هلكوا . وخزانة الخلافة قد افقرت . والواقع ان هذا

الدمار الشامل في العاصمة جعل إدارة دفة الحكم من بغداد أمرا مستبعدا ، وكذلك عاد المأمون غير آسف الى خراسان الصديقة ، حيث باشر الخلافة من مدينة مرو .

لكن اتخاذ مرو مقسرا دائما للخلافة واعتبار العراق والشام مجرد ولايات نائية كان أكثر مما يطاق . ولا غرابة اذا بدأ الشماميون الآن في اظهار الذات . فانهم رغم الخنوع الذي ظل طابعهم طوال الستين عاما الماضية ، لم ينسوا بعد المذابح الفظيعة التي ارتكبتها ضدهم جحافل أبي مسلم . ثم ان القبائل حين رأت الخلافة تنزلق أكثر وأكثر تحت سيطرة الفرس ، ما لبثت ان انحازت الى التمرد .

ومن ناحية أخرى فان اختيار المأمون خراسان مقرا لحكمه كان من شأنه أيضا أن يعرضه للوقوع تحت تأثير مجوسى سابق دخل الإسلام هو الفضل بن سهل . وكان الفضل قد بقي ليحكم خراسان عندما خرج المأمون لقتال أخيه ، وقد استطاع أن يؤلف بين السكان الفرس والأتراك ويجعل منهم مجموعة متجانسة . ومكافأة له على جهوده جعله الخليفة وزيرا عند عودته الى مرو ، وعين أخوه حسن واليا على بغداد . ولكن الفضل كان يضمّر عداً دفيناً للعرب ، وعندما أخذ في وضع حكام من الفرس والأتراك للأقاليم التي تشمل مستوطنين من العرب منكرًا عليهم كل حكم ذاتي ، فقد أبدى للعرب بكل جلاء كيف ينوى أن يجعل الخليفة يتصرف على هذا النحو في الأجزاء الأخرى للإمبراطورية . فضلا عن ذلك فقد كان شديد الغيرة من قائد الخليفة طاهر وهرثمة ، وقد اقتنع المأمون في أول فرصة بابعـسـادهما عن خراسان . فأوفد طاهر الى الشام لمعالجة قلاقل القبائل

فيها ، وعين هرثمة واليا على شبه الجزيرة العربية .
وقد قبل طاهر هذا التكليف دون تدمير واتجه الى الشام
وفي عينيه بريق القتال ولكن هرثمة ذهب الى الخليفة
قبل رحيله وحذره من ان الامبراطورية كلها الى الغرب
من جبال زاغروس سوف تفلت من قبضته ما لم يعد
سريعا الى العراق . ولكن الفضل كانت له الكلمة الأخيرة
لدى الخليفة ، فقد اعتقل هرثمة وزج به في السجن حيث
توفي بعد فترة قصيرة ، ولعله لقي مصرعه بفضل الوزير
الرهيب .

ولكن هذا التذير ما لبث ان تحقق سراعا . ففي
عام ٨١٦ أجبر حسن على الانسحاب من بغداد ، فقد
شهدت العاصمة وما حولها السلاح ضد مستشاري
المأمون إفرس كما تنبأ هرثمة . وظل العراقيون مدى عدة
أشهر في حالة فوضى ، الى ان أرسل اليهم في النهاية
عم للخليفة من خراسان لإقرار الهدوء باعلان العفو عن
المتبردين .

لكن الخليفة لم يعدل عن سياسته في اثار الفرس
على العرب . ففي العام التالي عين وريثا للعرش هو علي
ابن موسى أحد أئمة الشيعة ومن نسل الخليفة علي .
وفي نفس الوقت أمر بأن يغير اللباس الرسمي في سائر
أنحاء الامبراطورية من اللون الأسود وهو شعار العباسي
الى لون الشيعة الأخضر . ولسكى يظهر احتقاره للرأي
العام السني فقد سمي وريثه (علي الرضا) . بل انه
فتن بشخصية علي الرضا حتى ظل حيناً وهو لا يفترق
منه ، وزوجه ابنته مبالغة في تكريمه .

ولقد كان التأثير المباشر لتعيين وريث للخلافة من
الأقلية الشيعية دون الأغلبية السنية هو إثارة الهياج في

بفداد ، حيث دفع سسكان العاصمة المأمون بالزندقة ،
وتادوا بخلعه ايثارا لعمه ابراهيم .

واخيرا استيقظ المأمون على الخطر البالغ على وضعه ،
والحاجة الى عمل جاهد مستميت لاسترداد عرشه .
ومن الغريب ان عليا الرضا هو الذي وجهه صديقه
ومولاه التوجيه السديد . فبناء على مشورة علي ما لبث
المأمون ان طرد الفضل ورتب أن يذهب الى بفداد بنفسه
وأمر بإعادة طاهر من الشام ليكون واليا على الامبراطورية
الشرقية . ولما كان المأمون قد تفتن الآن الى مشالب
وزيره فقد اشتد غضبه عليه ، وتكفلت عصبة من الخاقدين
على الفضل بتخليص الخليفة الى الأبد من مستشار
السوء . ولم تمض فترة حتى وجد الوزير مقتسولا في
حمامه . ولكن في حين ان المأمون قد أنكر تأمره في
الحادث ، فقد بدا انه لم يساوره شيء من وخز
الضمير .

ولقد كان شعور المأمون مختلفا تماما عندما مرض
صديقه الحميم علي وهما في الطريق الى بفداد ثم توفي .
ويقول البعض انه مات مسكوما ، بل هناك من يتهمون
المأمون بأنه أزاحه من الطريق . وصحيح ان الامام الشيعي
لم يكن بالرفيق الملائم لكي يصحب الخليفة في رحلته
لاستعادة العرش ، ومع ذلك فلا بد من تبرئة المأمون من أي
غدر بدر منه حيال صديقه ، منذ ان حزن حزنا شديدا
لوفاته ، وأمر على الأثر ببناء ضريح كبير تخليدا لذكرى
شاب ورع كان لديه بمثابة الأخ منذ ان قدم لأول مرة
من خراسان . ولقد سمي مقر هذا الضريح الذي ضم
رفات علي الرضا وهارون الرشيد باسم « مشهد » ،
وهو يمثل عند الفسرس الشيعيين ثاني أقدس مكان في

العالم بعد كربلاء ، المكان الذي استشهد فيه الحسين .

ولقد كان المأمون الى أن تحدث ثورة بغداد وضعه الشخصى يبدو قليل الاهتمام بشئون الحكم فيما لا يتجاوز خراسان . بيد انه أصبح منذ الآن رجلا يملكه انبعاث جديد وعزم ولید . فبعد أن ادار ظهره لرجال خراسان وبدأ ارتياح العراقيين لوفاة على الرضا ، بادر بالقضاء على أى عائق يحول بينه وبين بغداد . فعفا عن عمه ابراهيم وأصدر عفوا عاما عن أهل المدينة الشائرة . وعمل المأمون بمشورة طاهر فقير اللباس الرسمى الى السواد من جديد ، حتى بدا الآن أقرب الى تعويض العراقيين عن تجاهله لهم طوال الأعوام الستة الماضية . وقد توج عودته بذلك اللون من الحفلات الباذخة التى يشفف بها أهل بغداد ، عندما توج ابنة الوالى المخلوع حسن بين مشاهد باهرة من الأبهة والترف ، فقد أمطرت العروس بألف من اللآلىء وألف من اليواقيت من صحاف ذهبية وهى جالسة مع زوجها فوق بساط ذهبى مرصع بالؤلؤ والياقوت الأزرق ، فضلا عن الهدايا السنية التى اتحف بها المدعوون ، والمسال الذى كان ينهال عليهم بغير حساب .

وبعد أن تحول المأمون من متفرج على الأحداث الى صانع لها ، شرع الآن فى تحويل العاصمة العباسية الى مركز للثقافة والعلم لا يضارعه شئ فى عصره . وقد أصبح بفضل شغفه الشديد بالفنون والعلوم اعظم الخلفاء رعاية للشعر وعلوم الدين والفلسفة والتنجيم والفلك . وكان يشجع ويستقدم رجال العلم والمعرفة دون نظر الى الجنس او الدين : من مسيحيين ويهود ويونانيين ومجوس . وغدا نهر الثقافة الذى تدفق من قبل فى

اليونان من منابعه القديمة في مصر وبابل وفينيقية - غذا
يتدفق الآن من جديد في منابعه الاصلية لكي يعيد اليها
الخصب مرة أخرى .

وفي هذا السبيل انشئت اكاديميات للتعليم العالي ،
ومدرسة للقانون ، وقاعة للعلوم مزودة بمكتبة ومعمل ،
وكليات ترصد لها الاعتمادات المالية من الدولة . وقد
بذل جهد ضخم للارتفاع بالمكانة الادبية للخلافة . واعدت
بحوث كثيرة عن أعمال الفلاسفة والرياضيين اليونانيين
وعن الأعمال الادبية والتاريخية الفارسية . وقد نقلت
هذه المؤلفات وغيرها من الكتب الفارسية والسنسكريتية
الى العربية على أيدي هيئة من المترجمين الذين اعدت
لهم الإقامة في « دار الحكمة » ، وهي مزيج من مكتبة
واكاديمية ومكتب للترجمة ، وعهد بالاشراف عليها الى
« شيخ المترجمين » وهو عربي مسيحي يدعى حنين بن
اسحق ، وقد تولى شخصيا ترجمة « جمهورية »
افلاطون وكتاب « المقولات » و « الطبيعة » لأرسطو ،
ومؤلفات اقليدس ، وتعهد عن ترجمته لهذه المؤلفات مثل
وزنها ذهباً .

وفي مجال الأدب العربي شجع الشنسهراء والمؤرخين
وعلماء الدين على تأليف مجلدات مستفيضة ومتممة .
واكتسب النشر العربي الذي كان يمتاز أصلاً بأحكام السبك
ودقة الأسلوب طابع الجزالة الفارسية والتنميق الذي
لازمه منذ ذلك العهد .

لقد كان هذا هو عصر الاسلام الذهبي ، لا في مجال
الحياة المرفهة فحسب ، ولكن كذلك في التفوق الثقافي
والاسهام فيه بالانجازات الكبرى ، والذي تها فيه للعالم
الاسلامي ان يؤثر أعظم التأثير في الفكر الغربي آدابه

وعلمه ، وان يجعل هذا التأثير باقيا ممتدا ، فقد كان الفلاسفة والأطباء والكيميائيون والفلسفيون والرياضيون والجغرافيون من العباسيين في المشرق ومن العرب في اسبانيا هم الذين طوروا التراث الفلسفي والعلمي للبلاد القديمة في اليونان ومصر وفارس والهند ، ونسقوا بينه وبين المعتقدات الدينية لعالم يؤمن بآله واحد . وبهذا أوجدوا الترابط الجوهرى بين تعاليم أرسطو وجالين وأقيلدس وأفلاطون وتفكير الأوربيين المحدثين .

ولقد كان أعظم هؤلاء المنسقين ومن أكثر الفلاسفة تنوعا الذين ازدهروا في عصر العباسيين الذهبي هو أبو على الحسين بن سينا . كان فارسيا من أهل بخارى ، وقد اكتسب لنفسه لقب « شيخ المسلمين » لفزارة علمه . لقد بدأ سيرته في الحياة عند نهاية القرن العاشر بشفاء سلطان بخارى ، الذى منح هذا الطبيب الشاب ، عرفانا بخدمته ، حرية استخدام مكتبته الزاخرة بالمصنفات . وقد تهيأ لابن سينا وهو فى الحادية والعشرين أن يقرأ كل كتاب ضمنه مكتبة راعية ، ثم أنشأ يدبج مؤلفاته هو ، وقبل وفاته فى أخريات الخمسين من عمره كان قد أتم تأليف قرابة مائة كتاب ، سجلت دائرة كبيرة من شتى موضوعات كالفلسفة ، والفن ، والشعر ، والهندسة ، والفلك ، والموسيقى ، وعلوم الدين . وكان من مؤلفاته سبل لا يكاد ينقطع من دوائر المعارف فى الفلسفة والعلوم ، تأثر فيها بأفلاطون وأرسطو . وعمل على تقنين الفكر والأبحاث الطبية لليونانيين والعرب ، وتطوير نظريات جديدة لعلاج العديد من الأمراض المعدية . وكما حدث لمؤلفات جابر والرازي ، فقد ترجمت مؤلفاته الى اللاتينية ، وقد ظلت حتى القرن السابع عشر وهى لا تزال المرشد والموجه الرئيسى لعلماء الطب فى القسرب . واما عن

اسهامه في خدمة العالم العربي والفسسارسي في عصر
العباسيين ، فيمكن أن يقال بحق أنه أسدي أكثر من
أي فيلسوف أو مؤرخ آخر كثير في ترجمة علوم ومعارف
اليونان وتقديمها الى العالم الاسلامي . والواقع ان أعمال
ابن سينا قد شكلت القنطرة الأساسية في الجسر الذي
بناه المسلمون بين ثقافات اليونان القديمة وأوروبا
الحديثة .

وإذا كان ابن سينا أعظم الفلاسفة الذين عاونوا في
التنسيق والموازنة بين أرسطو وأفلاطون وبين الاسلام ،
فانه لم يكن الوحيد في هذا المضمار ، اذ سبقه الى ذلك
بقرن من الزمان يعقوب بن اسحق الكندي الذي ولد من
أصل عربي صرف في الكوفة والذي أثبت ، مثل ابن سينا
انه فيلسوف . فبفضل تنقيبه في علوم الفلك والهندسة
والكيمياء وطب العيون والموسيقى ، استطاع أن يؤلف
أكثر من مائتي وخمسين كتابا ترجم الكثير منها الى
اللاتينية . وكان لنظرياته الهندسية المؤسسة على
القواعد الرياضية اليونانية تأثيرها لدى روجر بيكون ،
كما كان لمؤلفاته في الموسيقى ، التي تأثر فيها أيضا بما كان
عند اليونانيين ، الريادة في هذا المضمار الجديد . وكان
من بين معاصريه القريبيين محمد بن طرخان الفارابي من
بلاد ما وراء النهر ، الذي عمسل على تطوير النظريات
السياسية والفلسفية لأفلاطون وأرسطو وتطبيقها في الحياة
العربية . وكان الفارابي ذا تنوع مثل الكندي ، فآلف
كتبا في الطب والموسيقى والرياضيات . كما كان عازفا
بارعا على العود ، حتى قيل انه كان في قدرته التأثير
في نفوس المستمعين الى حد استشارة دموعهم أو ضحكاتهم
أو هدهدتهم للنوم .

وقد امتازت خلافة المأمون أعظم امتياز أيضا بالتقدم في الرياضيات . والواقع أن أبرز وأبقى أسهام للعرب في تنوير وتعليم الغرب إنما كان ادخال الأعداد العربية الذي كان الفضل فيه لمحمد بن موسى الخوارزمي أعظم الرياضيين المعاصرين عندئذ والعالم الفلكي المبرز . لقد ولد الخوارزمي كما يدل اسمه في خوارزم في وادي بلاد النهر عام ٧٨٠ ، وكان حجة في وضع أقدم المؤلفات المعروفة في الحساب والجبر . ولقد استخدمت هسالة المؤلفات في أوروبا ككتب مدرسية نهودجية في هسالة المضمار حتى القرن السادس عشر ، ومن خلالها تلقت أوروبا كلا من نظام الأعداد العربية - المأخوذة أصلا من القواعد الحسابية في الهند - وعلم الجبر . ولولا هذا النظام العربي لكان من المحال أن تستمر أوروبا في اتباع نظام الأعداد الروماني العسير . وكان عمر الخيام الذي تقوم شهرته على الشعر وكان مع ذلك من علماء الرياضيات والفلك المقتدرين ، من بين أولئك الذين تأثروا بالخوارزمي .

وقد تقدم علم الفلك خطوات بالغة الأهمية في القرن التاسع تحت رعاية المباسسين ، ومثله في ذلك علم الجغرافيا . ومما هو جدير بالتنويه أنه قد أجريت حسابات دقيقة لحجم ومحيط الأرض ، التي أصر علماء الفلك العرب على أنها كروية . وقد ترجمت هذه المؤلفات العربية وغيرها فيما بعد إلى اللاتينية .

ويرجع الفضل في تقدم علم الجغرافيا إلى الاهتمام بالبلاد الأجنبية الذي أثاره التجار والملاحون العرب ، وإلى الاتساع الشاسع الذي بلقته الامبراطورية العربية ذاتها . وقد تولى الكندي وغيره ترجمة مؤلفات بطليموس

لما كان عليها من اقبال كبير . واستخدم الخوارزمي هذه المادة في ابحاث الخاصة ، وتولى بدوره تأليف مصنف جغرافي من اعدادة الخاص هو « شكل الارض » ، الذي اخذ كأساس لأبحاث أخرى . وبمضي الوقت تقدمت الجغرافيا التفصيلية ، وبحلول القرن الثالث عشر كان للعباسيين أن يباهوا بواحد من اكبر علماء الجغرافيا في كل العصور - ياقوت بن عبد الله الحموي ، وهو يوتاني بدأ حياته كعبد في الشام ، وأصبح قاموسه الجغرافي الذي أتمه عام ١٢٢٨ واحدا من أعظم الموسوعات في كل العصور . لقد فتح ياقوت آفاقا جديدة بمؤلفه ذلك الذي لم يشتمل فقط على كافة المعرفة الجغرافية القالمة ، ولكنه أضاف ملاحظات جديدة عن الأصول التاريخية والعرقية للأقطار التي شملها .

ولقد قدر للخلافة العباسية أيضا أن تحقق تقسيمها رائعا في علم تدوين التاريخ . كانت البداية في القرن التاسع على يد جعفر الطبري ، واستمر بعسدها موكب طويل من المؤرخين المسلمين على مدار سبعمائة عام حتى الغزو العثماني في القرن السادس عشر ، ولقد ولد الطبري الذي يعد أعظم هؤلاء المؤرخين جميعا عام ٨٣٨ في طبرستان جنوبي بحر قزوين . وأليه يرجع الفضل في تأليف أول تاريخ عالمي باللغة العربية ، وهو كتابه المشهور (تاريخ الرسل والملوك) الذي بدأ بخلق الكون واستطرد حتى عام ٩١٥ . كان الطبري غزير المادة مثال التفاني في العمل ، وقيل أنه كان يكتب أربعين صفحة كل يوم على مدار الأربعين عاما التي استغرقها في اتمام ذلك العمل الضخم ، وأنه باع أكرام قميصه لشراء طعام لأسفاره بحثا عن المادة في مصادرها ، وهي

أسفار حملته الى أقاصى الأركان فى المسراق وقارس
والشام ومصر .

وتلاه فى الترتيب التاريخى أبو الحسن المسعودى ،
من أبناء بغداد ، وقد سمي (هيرودت العرب) . وقد
نقب المسعودى بكتابه المعسروف باسم « مروج الذهب
ومعادن الجواهر » فى تواريخ المسلمين واليهود والرومان
والهنود ، وأكد دعوى مشيرة تقول بأنه عند بدء الخليقة
كان البحر أرضا وكانت الأرض بحرا . كما نهج المسعودى
نهجا جديدا فى أسلوب تدوين السير ، فبدلا من تسجيل
الأحداث وفقا لترتيبها وتسلسلها ، كما فعل الطبرى ،
عمد الى تجميعها ووصلها بالأسر الحاكمة والشخصيات .
وبعد قرنين جاء عز الدين بن الأثير ، الذى تولى فى كتابه
« الكامل فى التاريخ » تلخيص وتركيز المؤلف التاريخى
الكبير لابن الطبرى ، ثم زاد عليه لسكى يفتى فتسرة
الحروب الصليبية . وفى القرن الثالث عشر كان أحمد
ابن محمد بن خلقان ، من نسل يحيى البرمكى وزير هارون
الرشيد ، أول مسلم يصنف قاموسا فى السير
والشخصيات القومية . وجاء فى أعقاب ابن خلقان ،
بعد سقوط الخلافة العباسية ، أبو الفدا ، سليل
صلاح الدين ، الذى تولى بدوره تلخيص تاريخ ابن الأثير
وتابع الوقائع الى تاريخ وفاته فى عام ١٣٣٢ . ومن
المصادفات ان هذا العام نفسه قد شهد فى تونس مولد
آخر اكابر المؤرخين العرب ، عبد الرحمن بن خلدون .

انحدر ابن خلدون من أسرة عربية فى اسبانيا كانت
قد هاجرت من اليمن فى القرن التاسع . وقد بدأ حياته
موظفا فى الحكومة فى عهد سلطان غرناطة عام ١٣٦١ ، بعد
انقضاء نيف وثلاثمائة عام على زوال الخلافة الأموية

فى اسبانيا . ولكن نظرا لما اثارته صداقته للسلطان من حسد وزيره القوى المفرض ، انسحب ابن خلدون الى الجزائر حيث بدأ اعداد مؤلف عن تاريخ الفلسفة عند العرب والفرس والبربر ، فى مدونة من ثلاثة اجزاء ، اشتهر الجزء الاول منها باسم « مقدمة ابن خلدون » . وقد نهج ابن خلدون فى هذا المصنف الكبير نهجا جديدا تماما باصطناع دراسة اجتماعية للتطورات والوقائع التاريخية تربط بين العوامل المؤثرة كالمناخ والجغرافيا وكذلك الأحوال الدينية والسياسية ، وبين السلوك وتفاعل الأحداث عند العرب وما كان يطرأ على امبراطوريتهم من ازدهار وانحدار .

وكان ابن خلدون ، مثل الطبرى ، يحب الاسفار والترحال ، وفى عام ١٣٨٢ حمله السعى وراء مواد لعمله الضخم الى السفر الى مصر ، حيث أصبح لأول عهده بها محاضرا فى الأزهر ، ثم عين كبيرا للقضاة فى القاهرة فى عهد أحد سلاطين المماليك . وبعد سنوات قلائل صعب جيش المماليك الى الشام لمحاربة المفلول ، ويقسم ان تيمور لنك زعيم المفلول استقبله كمبعوث للمماليك . وتعد هذه المفامرة الفسريدة بالنسبة لابن خلدون تجربة أخرى فى العلاقات الانسانية لتأكيد دراساته الاجتماعية الكبرى ، التى ظلت حتى اليوم منقطعة النظر كمرشد فلسفى وكماذة وثيقة عن طبيعة واخلاق ومزاج الأمة العربية .

تلك ، ومثلها كثير ، هى المعالم البارزة فى عصر التنوير والمعرفة الاسلامى ، الذى بدأ فى اوائل عهد الخلافة العباسية وكان مبعث الهام للثورة العلمية فى اوربا فى القرن السابع عشر . ولم يسبق لحاكم عربى ان عمل

على تشجيع وتقدم الرقى الثقافى مثلما عمل الخليفة
المأمون . وعندما توفى وهو فى الثامنة والأربعين بالتيفويد
كانت البلاد تنعم بالأمن والرخاء . وقد يذكر الناس هارون
الرشيد مقرونا بتألق وأبهة ألف ليلة وليلة ، ولكن عصر
التفوق والسيادة العباسى قد استهل أبو جعفر ، ثم نضج
وأينع فى عهد المأمون ، حتى لقد أضحت عاصمة الخلافة
أعظم مركز للثقافة والعلم والترف فى العالم فى وقت كان
فيه قادة أوربا لا يستطيعون حتى كتابة أسمائهم . ومن
المؤسى أنه فى غضون أقل من سبعة عشر عاما بعد وفاة
المأمون ، وصل تفوق العباسيين السياسى الى منتهاه ،
وسارت الخلافة مرة أخرى فى طريق التدهور .

التفكير والأفول

الفصل الثاني عشر :

إنقصال مصر عن الخلافة

كان من بين الأخطاء الذريعة التي ارتكبتها العباسيون تخفيف قبضتهم على أطراف الامبراطورية . فانهم ، خلافا للأمويين ، كانوا أكثر اهتماما بالعمل على اثره وتجميل مركز الخلافة منهم بفرض وتثبيت حكمهم في كافة أرجائها ، وكان حتما أن تفضي هذه الحسابات الى تشجيع الولايات النائية على خلع نير حكمهم . ثم كان تحدى عبد الرحمن بن معاوية لبغداد حقيقا أن يفري حكام الولايات الأخرى بانتهاج هذا المسلك .

والواقع انه ما حل عام ٨٠١ حتى حدثت تونس حذو اسبانيا بزعامة واليها ابراهيم بن الأغلب . كان قد عينه هارون الرشيد في العام السابق ، وسرعان ما أقام لنفسه امارة مستقلة في تونس ، وسيسك لنفسه عملة خاصة حرص على أن يرفع منها اسم الخليفة . وعلى مدار المئة عام التالية ظل هو وخلفاؤه من الاغلبية يمارسون الحكم مستقلين عن كل سيادة عليا من عاصمتهم في القيروان ، حيث اقاموا في الموقع الأصلي الذي بنى فيه عقبة بن نافع مسجده - وهو أول فاتح عربي في شمال افريقية

ومؤسس القيروان - أقاموا المسجد الكبير الذي بقي حتى اليوم اثرا لمن جعلوا من تونس أمة مستقلة وهيئوا للقيروان أن تعد في نظر مسلمي المغرب رابع المدن الإسلامية بعد مكة والمدينة وبيت المقدس . ولقد بلغ من سيطرة وتأثير الأغالبة في القرن التاسع أنهم استطاعوا إزالة كل الآثار الباقية للغة اللاتينية في شمال أفريقية ، وظلت القصيدة الإسلامية في مدى ألف سنة التسالية هي السارية .

بل إن الأغالبة لم يقنعوا بما حققوه من تأكيد استقلالهم عن بغداد وإزالة التأثير اللاتيني من شمال أفريقية ، بل شنوا هجوماتهم عبر البحر الأبيض المتوسط عندما غزوا في عام ٨٢٧ جزيرة صقلية التي كانت إذ ذاك إحدى ولايات الإمبراطورية البيزنطية . لقد كان هذا أول تأكيد ضخم لقوة العرب البحرية ، التي ظلت تتزايد باطراد منذ فتح مصر وما تلاه من القضاء على الأسطول البيزنطي . وقد أدت النجاحات الأخرى التي أحرزها العرب مثل الاستيلاء على قبرص وفتح إسبانيا واحتلال جزر البليار ، إلى جانب الفارات المتقطعة التي كان يقوم بها القراصنة العرب والبربر على صقلية وكورسيكا وسردينيا - إلى مساعدة العرب في التغلب على خوفهم من البحر ، وهكذا نزع الأغالبة في جسارة إلى إنشاء أسطول لهم جيد التسليح يتمكنون به من مد رقصة ممتلكاتهم إلى داخل أوروبا . وعندما تلقى الأغالبة في عام ٨٢٧ نداء من طوائف معينة من الثوار في صقلية لمساعدتهم ضد سيطرة الروم ، استجاب الأمير الأغلبى

وأرسل أسطولاً من سبعين سفينة وجيشاً من عشرة آلاف رجل هبط على الساحل الغربي للجزيرة ، وبحلول عام ٨٣١ سقطت باليرمو ، وسقطت ميسينا بعدها بأثنى عشر عاماً ، وفي حين كان الغزو العربي للجزيرة يمتد ببطء ، قام الأغالبة بالاغارة على سواحل إيطاليا ، فاستولوا على باري ، وهددوا نابلي وروما ، حتى اضطر البابا الى دفع الجزية مدى عامين . وفي عام ٨٦٩ تم الاستيلاء على مالطة ، وفي عام ٩٠٢ أتم الأغالبة غزو صقلية ، التي أصبحت على امتداد ال ١٨٩ عاماً التالية جزءاً من العالم العربي .

ولم تكن هذه أول مرة سعت فيها أسرة حاكمة من المنشقين الى بسط حدود الإمبراطورية العربية في وقت كانت فيه السلطة المركزية آخذة في الضعف . ولكن ، في حين ان الأمويين انفصلوا في وقت كان فيه العباسيون يدخلون عصرهم الذهبي ، فان الأغالبة عندما ابتلعوا صقلية ، كانت الخلافة ذاتها قد بدأت تتفكك من الداخل . ومن المفارقات ان السبب في هذا الانهيار الداخلي كان هو نفس العامل الذي أسهم بأكبر قدر في قيام العصر العباسي الذهبي ، ألا وهو غلبة التأثير الأجنبي على الفكر والعمل العربي . وحتى في موضوع توارث الخلافة فان العباسيين لم يعودوا يحرصون على الدم العربي . فان هارون الرشيد والمأمون لم يكونا فقط نصف فارسين ، بل أربعمئة وثلاثين من الخلفاء السبعة والثلاثين الذين جاءوا بعد أبي العباس ولدوا من أمهات من الجوارى الفارسيات أو التركيات ، ولم يولد من دماء عربية خالصة سوى أبي العباس وابنه الأمين .

وكان تأثير الروم والفرس هو الغالب في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في بغداد ، ولم يعد للتأثير العربي مكان الصدارة . ومع وجود وزراء فارسيين يصرفون شئون الحكومة وولاة من الفرس يحكمون الأقاليم ، أصبح حرس الخليفة الخاص والجيش الامبراطوري مملوءا بالخراسانيين ، وكانت الحملات العسكرية تشكل غالبيتها من الفرس أو الأتراك .

وعندما ولي المعتصم شقيق المأمون الخلافة بعده أخذ النفوذ التركي يحل محل النفوذ الفارسي . فقد كانت أم الخليفة الجديد جارية من التركمان في حريم هارون ، وظل المعتصم طوال حياته وهو يتكلم لغتها ويتبنى عادات جنسها . وبسبب تشككه في الفرس والعرب على السواء ، فقد استبدل بحرسه الخاص من الخراسانيين ضباطا وجنودا من التركمان عرفوا باسم المماليك ، وجاء معظمهم من القوقاز وتركستان وقرغانة وغيرها من أنحاء آسيا الوسطى حيث وقعوا هم أو آباؤهم في الأسر على عهد فتوح الأمويين . ولقد جرى بالآلاف منهم كل عام إلى العراق ومصر وغيرها من أقطار الامبراطورية ، ولكوتهم لم يدرّبوا على شيء سوى فن الحرب ، فان هؤلاء المجالدين الأشداء سرعان ما ارتقوا في صفوف جيش الخليفة .

وقبل نهاية حكم المعتصم عام ٨٤٢ ، استولى الأتراك على قيادة الجيش وأصبحوا يسيطرون سيطرة فعلية على الخليفة . وقد لعبت هذه القوة برءوسهم حتى لقد أخذ الإحفاد الأتراك يتصرفون في شوارع بغداد تصرفات قطاع الطرق ، فكانوا يعتدون على المارة ويسبونهم لمجرد التلذذ

بالإساءة اليهم واذلالهم . وعندما قصر الخليفة في توبيخ جنوده وزجرهم ، تجمعت طوائف المواطنين للدفاع عن أنفسهم ، بيد أن المعتصم لم يشسب أن يعرض أتراكه للآزعاج ، فقد سارع ينقل مقر حكومته ، مع أفراد حرسه القساة ، إلى السامرا في أعالي نهر الدجلة ، حيث بنى عاصمة جديدة ، وعاقب أبناء عاصمته المنكودين بحملهم على أداء ضرائب للوفاة بتكاليف العاصمة الجديدة .

ولقد كانت هذه الحركة مشؤومة ، كما دل على ذلك تطور الأحداث ، إذ كانت نتيجةها الرئيسية وضع الخليفة كليا تحت رحمة ضباطه الأتراك ، والمزيد من إبعاده عن تأثير الرأي العام . وقد لا يكون هذا محل معارضة من جانب المعتصم ونصفه تركي ، ولكن بالنسبة إلى الخلفاء الثمانية الذين تحتم عليهم أن يقيموا في السامرا من بعده على مدار الثمانية والخمسين عاما التالية ، فإن العاصمة الجديدة لم تعد أكثر من سجن يسمح لهم فيه بالوجود والبقاء طالما أطاعوا سجنائهم الأتراك . وقد فقدوا بحلول النصف الأخير للقرن كل سيطرة على الخلافة . وأصبح رجال الحرس الأتراك هم السلطة الحاكمة العليا ، ينصبون أو يعزلون الخلفاء طبقا لأهوائهم ونزواتهم ، ويقتلون أو يسملون أعين كل من يرفض تنفيذ أوامرهم أو يحاول الإفلات من قبضتهم .

لكن إذا كان الأتراك قد استتاعوا السيطرة على الخلفاء في السامرا ، فإنهم كانوا أقل نجاحا فيما يتعلق بالولايات . فقد حدثت بعد وفاة المعتصم سلسلة من الثورات هزت الإمبراطورية من قواعدها في فلسطين

وشبه الجزيرة العربية ومصر وفارس وأرمينية ، بل حتى تحت أنوفهم في العراق . فان الولايات لم تشاطر الخليفة الراحل تعلقه بالممالك التركمانيين ، اذ كانوا يعدونهم جنسا اجنبيا من العبيد ينبغي حصرهم في ثكنات الجيش خاضعين للنظام الواجب . فضلا عن ذلك فان نظام الحكم في الولايات كان يسمح بقدر من الحكم الذاتي المحلي في ممتلكات الخلافة النائية ، مما جعل سلطة العاصمة المركزية متراخية . وعندما أصبح الولاة يتوارثون مناصبهم ، فقد اخذوا بالتدريج يحكون أنوفهم في وجه العاصمة ، ولقد بدأ نجاح انفصال الاغالبية في تونس تسرى عدوا الى مصر ، وانفصل حاكم سجستان في شرفى فارس عن الخلافة في عهد المعتز عام ٨٦٩ .

وفي محاولة لوقف هذا التيار الخطر ، ارسل الاتراك واحدا من جنسهم الى مصر ممثلا للخليفة الحاكم الاسمي ، الذي بقي في السامرا . كان احمد بن طولون هو اسم هذا الابن لعبد مملوك سابق من فرغانة . وكان أبوه قد أهدى الى المأمون من والى بخارى ، ونشأ الابن في بلاط الخليفة لكي يتعلم الجندية . وكان أول ما ظهر ابن طولون في عام ٨٦٦ ، عندما حاول الخليفة المستهين الفرار من السامرا الى بغداد . ولكي يستدرجه الاتراك من مخبئه عرضوا عليه الانسحاب في امان الى المدينة ، ولكنه عندما خرج من المخبأ اقتيد الى بيت قاتل عاجور في واسط حيث قتل . كان ابن طولون هو قاتل الخليفة ، ومكافاة له على الخدمة الدموية التي اداها لسادته ، فقد رقى وارسل الى مصر لتهدئة الاحوال فيها مع قوة كبيرة من الاتراك تحت قيادته .

وبينما كان ابن طولون منهمكا في هذه المهمة حدث انفجار كبير في العراق ذاته . كان هذا هو ما عرف باسم « ثورة الزنج » أي الزنوج الأحباش الذين كانوا يعملون في مناجم الملح الصخري في دلتا نهر الفرات . وكان قائد هذه الثورة فارسيا خارجيا على القانون رغم انه من نسل الخليفة على . وكان السخط في العراق على الخلافة والمسيطرين عليها من الأتراك قد بلغ مداه حتى حتى استطاع الزنج في مدى عامين الاستيلاء على البصرة والدلتا كلها . ثم انتشروا في كافة الاتجاهات حتى استولوا على واسط والبحسين ، وغزوا بعد ذلك فارس . ولقد ظل هؤلاء الزنج الأقوياء الذين كانوا يستلمون ميسادى الخوارج مدى أربعة عشر عاما وهم يثبون الخوف في الخلافة ويهزمون جيشا بعد جيش ويأخذون الألوف من الأسرى رهائن . وفي النهاية دب الانقسام الى صفوفهم وأوهى قوتهم ، فقتل زعيمهم عام ٨٨٣ وقضى على الحركة .

ان الجهود التي بذلت لسحق هذه الثورة ، التي قدر البعض خسائرها في الأرواح بنصف مليون ، قد أدت الى استنزاف خزائن الخلافة في السامرا . ولما كان الخليفة القائم في الحكم وهو المعتمد لم ينس مصر أخيه المعز الذي خلعه الأتراك لتقصيره في دفع رواتب الجيش الذي أرسل الى سجستان ، فانه أمر الولايات بتقديم معونات مالية . وقد دفعت كلها ماعدا مصر ، حيث اعتزم ابن طولون الآن أن يستغل ضعف الخلافة لتأسيس مملكة خاصة به . كان هذا التحدي بمثابة نقطة تحول في علاقة مصر بالبلاد العربية الأخرى . ذلك ان مصر أصبحت

منذ ذلك الحين ، باستثناء عودة قصيرة الى السيادة
العباسية في مستهل القرن العاشر ، دولة مستقلا فعلا ،
الى ان وضعت الامبراطورية العثمانية بعد ذلك بستمائة
سنة نهاية للحكم الذاتي في العالم العربي .

وكان اول عمل قام به ابن طولون كحاكم مصر المستقل
هو تنظيم جيش من مائة ألف من الأتراك والعبيد الزنوج
اقتضى منهم يمين الولاء له شخصيا . وفيما كانت جيوش
الخلافة تضمد جراحها بعد ثورة الزنج ، انتهز فرصة
غزو البيزنطيين للشام وعرض ارسال جنود للدفاع عن
ممتلكات الخلافة . فقبل العرض ، وخرج ابن طولون من
الفسطاط على رأس جيشه ، تاركا ابنه مشرفا على
مصر . وكانت مقاومة الروم ضعيفة ، وتم اخلاء الشام
من الفزاة بغير صعوبة . وقد تظاهر ابن طولون بمطاردة
العدو المنسحب الى داخل الأراضي البيزنطية ، فزحف
للاستيلاء على الموصل . ولكن قبل أن يصل الى هدفه ،
جاءته الأنباء بأن ابنه ، في محاولة منه لتحقيق نصر له
هو نفسه ، زحف من الفسطاط وهاجم الأغالبة في تونس .
واذ لم تكن لديه قوات كافية فقد منى هذا الفتى بهزيمة
نكراء ، وفي الوقت الذي عاد فيه ابن طولون لمعالجة الموقف
كان تقهر الابن شاملا . ولكي يلقنه الأب درسا فقد أمر
بجلده وأجبره على أن يأمر بنفسه بتمزيق أوصال من
كانوا مسئولين عن تشجيعه على هذه الحماسة حتى
الموت .

وفي خلال ذلك استأنف جيش ابن طولون الزحف
للاستيلاء على الموصل ، فقد عقد هذا الحاكم الشاب
الطموح الذي أصبح الآن مسيطرا على مصر والشام

وشمال العراق ، العزم على أسر الخليفة واحضاره الى مصر . انه لم يقتنع بما ظفر به حتى الآن ، وأراد أن يحكم الامبراطورية كلها مستندا الى سلطة الخليفة . وهكذا دعى المعتمد لسكى ينضم الى قوات ابن طولون التى تحتل الموصل لسكى تبسط حراستها له الى مصر ، حيث يتخذ فيها عاصمته بعيدا عن المشاحنات والاضطرابات فى العراق . وكادت هذه الخطة الجريئة المعجبة أن تنجح فان الخليفة فضل أن يكون تابعا لابن طولون فى الفسفاط على أسره الحالى فى السامرا ، وهكذا قبل دعوة ابن طولون وخرج الى الموصل ، ولكن قبض عليه أخوه الموفق الممالىء للأتراك ، وأعادته عنسوة الى محبسه فى قصر السامرا .

وبعد حبوط هذه المحسولة من جانب ابن طولون للاستئثار بالسلطة العليا ، شرع فى تدعيم قبضته على الشام ، التى أصبحت الآن تحكم من وادى النيل لأول مرة منذ العصر الفرعونى . ومن أجل هذه الغاية بنى قاعدة بحسرية فى بكا ، وأقام حاميات فى مراكز استراتيجية . كما عمل على تطوير الزراعة وتحسين الري ، مثلما فعل من قبل فى مصر . ولكن حامياته لم تلبث فى السنوات الأخيرة من حكمه أن بدأت فى الخروج عليه منضمة الى الخليفة تحت اغراء الرشوة القوي ، وعلى الرغم من بقاءه حاكما اسميا للشام حتى وفاته عام ٨٨٤ لأن الخليفة فضل تعاشى المواجهة معه ، فانه لم يعد يستطيع الآن بتاتا الاعتماد على ولاء أهل الشام . وباضطراره الى الانسحاب على هذه الصورة ، ركز اهتمامه على مهام التحسين الاجتماعى والمعمسارى فى مصر . فبنى أول

مستشفى في مصر لعلاج المرضى وقصرا منيفا لنفسه . وقد
كسيت جدران القصر بالذهب ، وازدانت بنقوش تصور
ابن طولون وزوجاته ومغنياته يلبسون تيجانا من ذهب ،
وأقام في حدائق القصر الفناء قفصا كبيرا للطيور وحديقة
حيوان وبركة من الزئبق تطفو فوقها حشايا من الجلد
منفوخة بالهواء لكي تهدد الحاكم وأصحابه فيستسلموا
لنوم . وأعظم أثر له بالطبع هو مسجد ابن طولون في
القاهرة القديمة ، وقد حاكى في مثذنته الهرمية المثلثة
الأصلية لجامع المعتصم في السنبامرا . يحيط بصحن
الجامع الرحب من جوانبه الأربعة رواق ضخمة ذو أعمدة
وأفريز نقشت عليه آيات من القرآن .

وقد أراد ابن طولون ، مثل كل فاتح أو مفتصب في
تلك العهود ، أن يؤسس أسرة حاكمة من ذريته . بيد أن
نجاحه هنا كان قصير الأجل . فان ابنه خماروية المفامر
الأحمق الذي حاول الاطاحة بالأغالبة أثبت أنه خلف
تافه ، اذ كان مسرفا متلافا ومعاقرا للخمر بغير حساب
حتى باء باللعنة من المسلمين المؤمنين ، وبعد أن جاء ابن
آخر . وحفيدان أثبتوا أنهم ليسوا أحسن حالا ، كان ذلك
ايدانا بنهاية الأسرة الطولونية . وفي عام ٩٠٥ عادت مصر
لمدة الثلاثين عاما التالية الى سيطرة العباسيين .

وقد علق بعض المؤرخين على فشل التجربة الطولونية
بان زعيمها لم تكن له قاعدة وطنية في الأراضى التى بسط
سلطانه عليها ومن ثم كانت قصيرة الأمد . كان الحاكم
ذاته دخيلا يضطر الى جلب أجناده من شتى المصادر
الأجنبية ، وحكم كهذا لا يمكن استدامته .

والواقع ان هذا التعليل يمكن أن ينطبق بانتظام عجيب على جميع العصابات التركية المتلفة التي ظلت على مدار الثلاثمائة والخمسين عاما التالية تتعاقب كسادة لخلفاء بغداد ، الى ان جاء المفلول ومحو الخلافة وعاصمتها من الوجود .

وكانت النتيجة لا مهرب منها . فقد حلت الفوضى والاعتلال بقيام سلسلة من الاسرات الحساسة الهزيلة وجماعات الزنادقة في سائر أرجاء الخلافة وأعلنوا استقلالهم . ومنذ ذلك الحين لم تعد الامبراطورية تعمل كوحدة قوة متماسكة . نعم ان قادة فردين ذوي شهرة عالمية مثل عبد الرحمن الثالث في اسبانيا وصالح الدين وببيرس المملوكي قدس لهم ان يظهروا فيما بعد ويستعيدوا المكانة الضائعة للمملكة العربية ، ولكن الخلافة كانت مؤسسة تلفظ انفاسها .

الفصل الثالث عشر :

صيف مشرق للأمويين في أسبانيا

بحلول منتصف القرن التاسع ، عندما بدأ التفكك في الامبراطورية العباسية ، كانت الوحدة التي أوجدها عبد الرحمن الأول في الامارة الأموية بأسبانيا تتفكك هي أيضا بسرعة . فبعد أربعة أجيال على وفاة مؤسسها ، بدأت الولايات والمدن الأسبانية تنتفض على حكم قرطبة . وأول ما بدأ هذا الفساد في (رية) في الجنوب وفي (أرغن) في الشمال ، حيث تحالفت الأسرة الحاكمة القسوطية ، رغم تحولها الى الاسلام ، مع ملوك ليون المسيحيين . ثم حدث حدوثهم طليطلة القلقة بعد أن أثارتها قبائل البربر . وبعد ذلك انفصلت اشبيلية ، وجليقية ، ومرسية ، والجرف في البرتغال . ثم جاء مسلم من نسل أحد نبلاء القوط الغربيين هو عمر بن حفصون وألب الثورة في الجنوب ضد الأمير الحاكم وسيطر عليه مدى ثلاثين عاما ضد خلفيه ، فعزل قرطبة عن بقية أسبانيا ، بل سعى وان لم ينجح الى الاعتراف به واليا على أسبانيا من قبل الخليفة العباسي القائم وقتها في الحكم .

وعكسا بابتداء القرن العاشر أوشك ميراث عبد الرحمن الأول على الضياع ، وانكشبت الامارة الأموية الكبيرة

التي شملت في وقت ما سبعة أثمان شبه جزيرة ايبيريا الى بضعة أميال مربعة من الأراضي حول قرطبة ، ولكن في عام ٩١٢ جاء شاب في الثالثة والعشرين من عمره يحمل اسم مؤسسها الأشهر لكي يستعيد لها ويرفعها الى أوج قوتها وشهرتها . كان عبد الرحمن الثالث الفارح الوسيم ذو العينين الزرقاوين من أم جارية مسيحية ، وقد خلف جده عبد الله ، وشرع من فوره في استعادة الولايات الضائعة . فزحف من عاصمة المطوقة واستولى على (استجة) و (البيرة) و (جاين) . وبنهاية عام ٩١٣ كانت عاصمة (رية) تؤدي الجزية ، وفتحت اشبيلية أبوابها للأمير الجديد . وقد ظل ابن حفصون يقاتل بعناد في الجنوب مدى أربعة سنوات أخرى ، ولكن عندما توفي عام ٩١٧ كان عبد الرحمن في طريقه لاستعادة الولايات المفقودة الى نطاق قرطبة . وبقيت طليطلة التي يسيطر عليها البربر تقاوم وحدها فترة من الزمن ، ولكن بحلول عام ٩٣٢ انتهت مقاسومة هذا المركز .

بيد ان متاعب عبد الرحمن لم تنته بعد . ففي افريقية جاءت أسرة علوية جديدة وطردت الاغالبة من القيروان . لقد تسموا باسم الفاطميين زعما بأنهم من نسل فاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وصمموا على الاطاحة بالبقية الباقية من الأمويين أعدائهم التقليديين وأعلنوا الحرب على امارة قرطبة . ولكن وفاة ابن حفصون حرمتهم من عون يعولون عليه كطابور خامس في اسبانيا ، وأدى بعد نظر عبد الرحمن في بناء أسطول له الى احباط خططهم في الفوز عن طريق البحر . وهكذا

توقف الفاطميون عما هموا به ، واستغل الأمير الشاب ورطتهم فأخذ المبادرة في يده وزحف الى افريقية حيث استولى على سبته وأجبر معظم ساحل البربر على الولاء له .

ولكن كان لا يزال هناك أوردونو ملك ليون ولا مفر من أن يحسب حسابه . ذلك انه بينما كان عبد الرحمن يواجه التهديد الفاطمي في الجنوب ، تول أوردونو كثيرا في الأراضي الاسلامية وأسر قائدا من الامويين وهلق رأسه على سور قلعة عند نهر دورو . فخرج عبدالرحمن الى الميسدان في عام ٩٢٠ وطرده أوردونو الى نافار واستولى على بامبلونة وخربها ، ثم عاد منتصرا الى قرطبة . وعقب ذلك ظل يواصل الضغط على ليون ونافار حتى عام ٩٣٩ ، حينما اتحد الملكان المسيحيان واوشكت جيوشهما أن تبعد جيشه وكانت هذه الكارثة سببا في أن يترك الاثنان وشأنهما في ركنهما من اسبانيا ، في مقابل معاهدة وقعت في احتفال مشهور في قرطبة اعترفت بسيادته في أرجاء باقى شبه جزيرة ايبيريا .

وقبل عشر سنوات من هذا الاحتكاك النهائي مع جيرانه المسيحيين كان عبد الرحمن قد نادى بنفسه خليفة ، لا من قبيل جنون العظمة ، ولكن لأن الخلافة كانت تتهاوى بددا بعد أن أخذت كل من مصر وشمال افريقية والولايات الشرقية تؤكد استقلالها . في هذه الظروف كانت اسبانيا العربية تعنى بالنسبة للعالم شيئا أكثر من هذه البقية المحطمة للإمبراطورية العربية .

وفضلا عن ذلك فان بلاط قرطبة كان معدودا من أروع

ما شهدته التاريخ ، ولم يكن يضارجه فى عصره سوى بلاد القسطنطينية . كان فيه مبعوثون معتمدون من الأمبراطور البيزنطى ومن بلاطات ألمانيا وإيطاليا وفرنسا . وكان القصر الملكى المطل على الوادى الأخضر الفسيح لنهر الوادى الكبير يضم أربعمئة حجرة بالإضافة الى مساكن لعدة ألوف من العبيد وأفراد الحرس . وكان تعداد سكان قرطبة - وهو اليوم ١٨٠ ألفا - يناهز ثمانمئة ألف نسمة . وارتفع عدد المساجد الى سبعمئة . وكان فى المدينة ثلاثمئة من الحمامات العمومية فى وقت كانت فيه الشعوب الأوربية لا تزال تعتبر الاستحمام عادة وثنية . وكانت الشوارع - وقوامها عشرة أميال - مهتدة ومضاءة ، وهو تقدم كان مقدرا الا تنعم به لندن وباريس قبل سبعمئة عام تالية ، كان المواطنون أثناءها يتحسسون طريقهم ليلا فى الظلام الحال ك ويتخبطون فى وحول تقوص فيها الأقدام حتى الكعبين . وكانت المدينة تضم سبعين مكتبة عامة ، وفى عهد الحكم ، ابن عبد الرحمن ، الذى كان مشفوقا بالكتب ، جمعت مجموعة من أربعمئة ألف كتاب من المكتبات العامة والخاصة فى الاسكندرية ودمشق وبغداد ، فى حين لم يكن يوجد فى أى مكان فى العالم أكثر من عشرة آلاف كتاب باللغة الانجليزية . وكان حكام ليون ونافار وبرشلونة يرسلون الى قرطبة اذا احتاجوا الى طبيب أو مهندس معمارى ، لا الى فرنسا أو ألمانيا . وكانت جامعة قرطبة تجتذب الطلاب من أوروبا وأفريقية وآسيا . وكانت معرفة القراءة والكتابة عامة ، حتى أكد المؤرخ دينهارت دوزى أن كل فرد تقريبا كان يقرأ

ويكتب ، فى حين ان معرفة القراءة والكتابة فى اوروبا كانت لا تزال ميزة لرجال الدين وقلة من الكتبة المحترفين .

وفى النواحي الصناعية ايضا خطت اسبانيا خطوات واسعة تحت فيسادة عبد الرحمن . فقد ازدهر النسيج والمصنوعات الجلدية ، حتى ان مراكش تعلمت صناعتها الجلدية من اسبانيا العربية . وتقدمت صناعة الزجاج والخزف ، وكذلك استخراج معادن الذهب والفضة والحديد والرصاص . واشتهرت وانتعشت الزراعة بفضل الرى الذى ادخله العرب ، الذين جلبوا الى اسبانيا ايضا الموالح التى جاءت الى العالم العربى من الهند ، او كذلك العنب والخسوخ والمشمش والقطن وقصب السكر . ولا يزال الطابع المغربى باديا فى حدائق وكروم اسبانيا الحديثة .

وازدهرت تجارة الصادرات التى كان يتولى نقلها اسطول عبد الرحمن التجارى الى اركان العالم البعيدة . وكانت انجلترا وفرنسا تستوردان منتجات اسبانيا ، التى كانت تجد طريقها ايضا الى الشرق الاقصى فى الهند وآسيا الوسطى . وتشهد الأصول العربية لبعض المفردات البحرية الأوربية ، الحديثة مثل (اميرال) و (تعريف) على مدى انتشار التأثير ، الذى أحدثه أولئك الملاحون التجاريون العرب . كما ان العملة التى أدخلها العرب الاسبان قد افادت على مدار ، الأربعمئة عام التالية كأداة التبادل النقدى الوحيدة فى أجزاء من أوروبا .

كان مثل هذا الرخاء كفيلا بأن يجيء بايراد ضخمة . فقد أصبحت تتدفق الآن فى خزانة الخليفة ستة ملايين

وربع مليون من الدينارات كل عام . ومن هذا المبلغ كان يحتفظ بالثالث كاحتياطي ، وثلث آخر ينفق على الجيش ، والثالث الباقي كان يخصص للأعمال والمباني العامة .

وكان عبد الرحمن مكثرا في اقامة المباني . فقد بنى جامعة قرطبة وكثيرا من المساجد السبعمئة . وليس من شك في أن أجمل أعماله هو قصر المرمر الرائع ، القائم على بعد أميال قليلة من قرطبة ، والذي أقامه خصيصا لمحظيته الزهراء وسماه باسمها . فقد اشتمل على أكثر من أربعة آلاف من الأعمدة المرمرية جلبت من ايطاليا وقرطاجة وبيزنطية ، وقام بالعمل فيه عشرة آلاف من أرباب الحرف تحت اشراف أعظم مهندس معمارى بيزنطى في ذلك العهد مدى عشرين عاما حتى أتموه . واليوم لم يبق منه سوى أسسه وقليل من الجدران والأرضيات واطلال الضاحية الملكية التى امتدت حول القصر وضمت أكثر من اثنى عشر ألفا من الناس . أما الباقي فقد نقل بعد الفزو المسيحي في القرن الخامس عشر لبناء الدير الشاسع في سان جيرونيمو في التلال المجاورة .

وقد أفلح الحكم خليفة عبد الرحمن في المحافظة على تماسك الخلافة طوال الخمسة عشرة عاما من حكمه . ولكنه عندما توفى عام ٩٧٦ وخلفه ابنه هشام البالغ من العمر اثنى عشر عاما ، أصبح الحاكم الحقيقى لقرطبة شخص لا خلاق له يدعى محمد بن أبى أمير الذى تسمى تظاهرا باسم المنصور . وكان المنصور خلال حكم هشام كاتب رسائل فى البسلاط ، ولكنه استطاع بعد وفاة الخليفة أن ينال الحظوة عند أرملة حتى استوزرتة .

وبعد أن سيطر على حرس الخليفة الصبى وكانوا خليطا من أربعمائة ألف من الأسرى الأوربيين الذين سماهم عبد الرحمن الصقاله وأدخلهم فى الاسلام - جدد المنصور الحرب ضد لنون وثافار ، وفيما بين عام ٩٨٥ ونهاية القرن خرب الجزء المسيحى من اسبانيا ، فنهب برشلونة ودمر ليون . ولكنه فى عام ١٠٠٢ أضاع ما ناله ، وقتل يهو يحارب فى قشتالة .

وكان انتصار المنصور القصير الأمد ايدانا بنهاية الفتح العربى فى اسبانيا ، وبموته بدأت الخلافة الاسبانية تلفظ بفاسها أيضا . فقد انقلب حرس الصقاله على الخليفة لفتى وجعلوه أسيرهم . وتمرد البربر بدورهم لانتزاع كل ما يستطيعون من الدولة الأموية المجسزة . وفى عام ١٠٠٩ تنازل هشام عن الخلافة ، وفى خلال الاثنى والعشرين عاما التالية تعاقب ستة خلفاء بسرعة غريبة دون أن يكون لاحدهم سلطان ما ، وكان كل منهم العوبة اما فى ايدى الصقاله او البربر او أبناء قرطبة ، حتى اذا أدى الدور المرسوم له قتل بأيدي حرسه أو لقي حتفه بالسهم أو اختفى من المسرح ببساطة .

وعند انتهاء القرن الحادى عشر كان النفوذ العربى فى اسبانيا ينكمش فى كل مكان . ليحل محله البربر أولا ثم المسيحيون . فبعد خلافة متحصدة متماسكة أعقبها عشرون من الأسر الحاكمة والجمهوريات الهزيلة ، كانت كل منها فريسة سهلة للماوك المسيحيين فى الشمال ، الذين امتدت انتصاراتهم حتى طليطلة وبلنسية . وقد جرت المعركة الفاصلة عام ١٢١٢ عند لاس نافاس دى تولوزا ، عندما تمكنت قوة ضخمة من جيوش المسيحيين

المتحدة من قشتالة وأرغن ونافار من هزيمة الجيش العربى . وعندئذ أصبحت اسبانيا العربية تحت امرة الفسزاة ، فسقطت قرطبة عام ١٢٣٦ ، واشبيلية عام ١٢٤٨ . ولم يتمكن من الصمود سوى روندا الجبلية الحصينة وغرناطة . ولكن بعد قرنين دمرتهما الجيوش المشتركة لفرديناند ملك أرغن وايزابيلا ملكة قشتالة .

وهكذا اختفى الحطام الطافى فى اسبانيا للمد الاموى المنحسر ، ودالت الامبراطورية الثالثة والاخيرة للعرب . وكما حدث بالنسبة للأمويين فى الشام والعباسيين فى العراق ، كان الحال كذلك بالنسبة للأمويين فى اسبانيا . فى كل حالة كان العرب يبلغون ذروة القوة والمكانة على أيدي حكام مقتسدين ، ثم لا يلبثون أن يخسروا كل ما ظفروا به حالما يختفى أولئك الحكام المقتدرون من المسرح .

ومن عجب ان استقرار توازيخ الأمم والشعوب يدلنا على ان فترات الانتصارات الحربية قلمسا كانت تهيبء المناخ الصالح لازدهار الثقافة والعلم ، فى حين ان فترات الاسترخاء ، وأحيانا الانحدار ، هى التى اتسمت بالشراء الثقافى والعلمى . ولقد كان الحال كذلك فى اسبانيا العربية ، نعم ان حكم عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم المشغوف بالكتب قد زرع بذور التطور الثقافى وجعل من قرطبة المركز الثقافى فى أوربا . ولكن انجازهما يخبو بريقه امام الوثبة الكبرى التى أعقبت انهيسار دولة الأمويين الاسبان . ففى مجالات الأدب ، والشعر ، والموسيقى ، كان تأثير اسبانيا العربية فى أوربا أقوى وأرسخ من تأثير العباسيين . هناك على بن حزم الذى

كان حفيدا لمسلم اسباني تحول عن المسيحية ، وهو واحد من أغزر المؤلفين انتاجا وخصبا في كل العصور . في شبابه خدم هشام الثالث آخر خلفاء الامويين الاسبان الذي استوزره ، ثم انتقل الى الكتابة عن خلع سيده على يد العصابة العسكرية . لقد اتم تأليف نحو اربعمائة كتاب شملت شتى الموضوعات كالتاريخ والشعر وعلوم الدين والمنطق .

ومعظم الملوك الصغار الذين توالوا بعد سقوط الخلافة الاموية في قرطبة كانوا يعينون امراء للشعر في بلاطاتهم ، التي قامت منافسات حامية بين دويلات اشبيلية وطليلة وقرنطة ، وكل حاكم يبارى الآخرين في التفوق الادبي ، وجميعهم قد عقدوا العزم على ان يكشف ضياؤهم بهاء قرطبة الوهاج . وكثير من موسيقى اسبانيا اليوم ، مثل الفلامنجو المشهورة ، ترجع اصولها الى الاغاني الشعبية وقصائد الحب التي ألفها الشعراء والموسيقيون العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وكان يغنيها المنشدون الجوالون ، وهم اسلاف « التروبادور » الذين عرفتهم أوروبا فيما بعد .

ولقد اهتمت اسبانيا العربية اهتماما قويا بالتعليم العام ، وخصوصا تعليم المرأة ، حتى كانت نسبة عالية من السكان تتقن المصارف الأولية كالكتابة والقراءة (خصوصا تلاوة القرآن) وقواعد الفلسفة العربية والشعر ، وبحلول منتصف القرن الرابع عشر لم تكن قرطبة وحدها هي التي تفاخر بما لديها من معساهد التعليم العالي التي تدرس فيها علوم الدين ، والفلسفة والقسمات والرياضيات والطب والفلك والتاريخ

والجغرافيا ، بل حدثت حدودها في ذلك أيضا غرناطة وملقة
واشبيلية . وكان في كل بلاط ملكي مكتبته الخاصة به
الى جانب العديد من مجموعات الكتب المملوكة للأفراد .
والحق ان امتلاك مكتبة زاخرة بالكتب الفاخرة التجليد
أصبح عنوانا لمكانة الطبقات الأوفر ثراء ، ويرجع ثراء
ونفاضة المخطوطات المصرية الباقية اليوم في قصر
الاسكوريال قرب مدريد - وهو واحد من أنفس وأغنى
ما هو موجود من مثله في العالم - الى ما جمعه فيليب
الثاني وفيليب الثالث مما بقى من مكتبات اسبانيا العربية
بعد الغزو المسيحي .

وفي ميسادين الطب وعلم النبات والفلسفة ، كما في
الأدب والشعر ، كان للعرب الاسبان تأثير بالغ في تقدم
الثقافة الأوروبية ، فمن الزهراوى طبيب البلاط لدى الخليفة
الحكم الثاني الذى اكتسب مكانة جعلته معدودا أعظم
جراح في العالم العربى ، الى الفيلسوف والطبيب العظيم
في القرن الثاني عشر ابن رشد - كان علم الطب الذى
جمعه العرب الاسبان من مصر والعراق وفارس ، يتدفق
الى أوروبا المسيحية في مجرى لا ينقطع . (ولا تزال آثار
التأثير العربى موجودة في لغة الكيمياء التى تدين للاشتقاق
العربى بمصطلحات مثل : صودا ، الكحول ، شراب ،
قلوى) .

نعم ان قرب اسبانيا الى أوروبا كان عاملا له اعتباره
في هذا التأثير ، ولكنه كان افضل أثرا وأكثر أهمية
بالنسبة لمترجمين أوروبيين مثل جيرار الكريمونى الذى
ترجم الى اللاتينية مؤلفات الرازى وابن سينا والزهراوى ،
وإدیلارد البائى مترجم الخوارزمى . وينصب هذا بصفة
خاصة على التقدم الذى حققه العرب في مجال الأبحاث .

ففى الوقت الذى كان فيه الممارسون الأوربيون مقيدون
بالتعاليم المسيحية ، استطاع العرب اجراء بحوثهم العلمية
فى جو متحرر نسبيا من القيود الدينية . وعلى سبيل
المثال فانه حتى القرن الرابع عشر كانت أوربا المسيحية
لا تزال تعتقد اعتقادا راسخا بأن « الموت الأسود » هو
' من عند الله ، فى حين ان طبيبا مسلما من غرناطة كان
يصر على انه مرض معد ، كما « أثبتته التجربة ،
والاستقصاء ، وأدلة الحواس ، والتقارير الموثوقة » .

وكان علم النبات من العلوم الأخرى التى ازدهرت
فى اسبانيا العربية . فانه لم يتم فقط استيراد كثير من
أنواع الفسكاكة والأزهار من الشرق العربى ، بل قد
أجريت كذلك بحوث مستفيضة فى الحيساة النباتية
والترية والمخصبات . وقد انعقد الاعتراف للعرب الاسبان
بالبروز والتفوق فى العصور الوسطى فى تقرير أنواع
العلاج لأمراض النباتات .

وكما قال مؤرخ معروف فان ذروة الانجاز الثقافى
العربى فى اسبانيا إنما كان فى مجال الفكر الفلسفى .
وكان ابن رشد ، آخر وأعظم الفلاسفة العرب ، أرسخهم
قدما فى عقلانيته التى أخضعت كل شىء ، ما عدا أسس
الاسلام المقدسة ، للاستدلال العقلى والتمحيص المنطقى .

ومن أبرز التعسليم التى أخضعها ابن رشد لهذا
الأسلوب العقلانى مؤلفات أرسطو . وعلى الرغم من أن
موسوعته فى الطب وبحوثه فى مرض الجدرى وأمراض
العيون قد أسهمت فى مجال البحث الطبى بنصيب وافر
مثل اسهام غيره من الأطباء العرب ، فان ما يذكر به

أساسا ويحله محل التقدير والاحترام إنما هو دوره
فى شرح فلسفة أرسطو . والواقع أن قلة من الكتاب
الآخرين تهيأ لهم أن يسيطروا على عقول العلماء والطلاب
الأوربيين فى العصور الوسطى كما سيطر ابن رشد ، ولقد
ظلت مؤلفاته مصادر وثيقة فى جامعات الغرب لما لا يقل
عن أربعمائة عام بعد وفاته فى نهاية القرن الثانى عشر .
والواقع أن شهرته كانت أكثر ذيوفا فى أوربا منها فى
العالم العربى . ذلك لأنه توفر أكثر من أى فيلسوف
آخر فى عصره على شرح الفكر اليونانى للغرب - رغم أنه
هو نفسه لم يكن يقرأ كلمة واحدة يونانية وكان يعتمد على
الترجمات العربية - وبهذا كان هو الموجه والمعوان على
فتح العصر المدرسى فى أوربا .

وجاء علماء آخرون وأصلوا العمل الفلسفى والطبى لابن
رشد وغيره من فلاسفة القرن الثالث عشر . ولكن بحلول
عام ١٢٥٠ كان الفنزو المسيحى قد توغل فى اسبانيا ،
وبالقضاء على الحكم العربى جفت ينابيع الإلهام التى
نهل منها المفكرون العظام . فكما أدت القيود العقائدية
فى المسيحية الى احباط التطور الفلسفى فى أوربا العصور
الوسطى مما أفادت منه اسبانيا العسكورية ، كذلك
أدى الفزو المسيحى بشبه الجزيرة الى شعور الفلاسفة
العرب بالاختناق بسبب القيود العقائدية التى فرضت
عليهم . ومن المحزن أن التأثيرات الليبرالية التى نقلها
الفلاسفة العرب فى اسبانيا الى أوربا المسيحية لم تجد
بأى حال انعكاسا لها فى سياسات قاهريهم المسيحيين .
وبعد قيام محاكم التفتيش بدا كان الأوربيين قد عقدوا
العزم على أن يسحقوا الى الأبد النظام الليبرالى الذى

مكن رجالا كابن رشد من المساعدة في انتشار أوربا من
العصور المظلمة الى عصر جديد للمعرفة . ذلك انه بعد
سقوط غرناطة عام ١٤٩٠ ، فرض التحول الى المسيحية
قسرا ، وفي عام ١٥٥٦ اجبر كافة المسلمين بقوة القانون
لا على التخلي فقط عن ديانتهم بل كذلك عن لغتهم
ومؤسساتهم . وأخيرا ، عند بداية القرن السابع عشر ،
كان أي مسلم لا يزال باقيا على دينه اما أن يعدم أو ينفي
عنوة الى افريقية .

وعلى النقيض مما كان من الفزاة المسيحيين لاسبانيا ،
فان النورمانديين الذين استعادوا صقلية ومالطة بعد
عام ١٠٦٠ قدموا مثالا فريدا للتعاون الأوربي العربي .
لقد استطاع العرب على مدار قرن ونصف بعد غرق
الافالبة في المد الفاطمي المتعالي أن يتشبثوا بوجودهم في
صقلية . بيد أن قبضتهم أصبحت واهية بسبب الحروب
الأهلية بين الطوائف الاسبانية والافريقية للسكان ، وعندما
غزا الكونت روجر النورماندي الجزيرة عام ١٠٦٠ ظفر
سريعا بموطيء قدم باستيلائه على مسينا . وبعد ثلاثين
سنة استولى على مالطة وأتم إعادة غزو صقلية .

والواقع ان ما طالع العقلية المحدودة التعليم لهذا
النورماندي المسيحي البسيط من رقي التعليم وقوة
التأثير الاسلامي في صقلية قد اثار بالغ دهشته . ففي
باليرمو وحدها كان يوجد أكثر من ثلاثمائة مدرس ومثل
هذا العدد من المساجد . ذلك لأنه في صقلية أكثر من
أي مكان آخر في الامبراطورية ، وجدت ثقافات الشرق
والغرب ملتقى طبيعيا في الجزيرة ، حيث كانت اللغات
اليونانية والعسرية واللاتينية طوال الاحتلال الاغربي

والفاطمي مستخدمة بقدر متساو كأداة التخاطب السائدة
لاخلاط السكان اليونانيين والعرب والأسبان والإيطاليين .

وبدلاً من قمع اللغة العربية والعقيدة الإسلامية ، اتجه
روجر إلى استغلال ورعاية الثقافة التي وجدها في هذه
الجزيرة المتعددة اللسان . فعين المسلمين في أرفع
مناصب الحكومة ، وجند أغلب قوة جيشه من الحاميات
التي هزمها ، وحشد في بلاطه الفلاسفة والشعراء والأطباء
العرب . وترك للمسلمين الحرية لممارسة عقيدتهم الدينية ،
ومواصلة الأنشطة التجارية والصناعية والزراعية التي
أدخلوها وساعدوا على ازدهارها . بل إن ولده وخليفته
روجر الثاني ذهب إلى أبعد من هذا ، فارتدى اللباس
الشرقي المزخرف بحروف عربية ، وهو تقليد سرعان
ما حاكته سيدات صقلية المسيحيات . واستخدم أرباب
الحرف العرب لإقامة وزخرفة كنائس جديدة . وتولى
أبو عبد الله الإدريسي أعظم الجغرافيين ورسامي الخرائط
وأكثرهم أصالة في ذلك العهد زخرفة البلاط . كما أن
حفيد روجر الثاني ، فريديريك الثاني الذي حكم صقلية
والمانيا وأصبح عاجلاً للأمبراطورية الرومانية المقدسة وملك
بيت المقدس على أخريات عهود الحروب الصليبية - حافظ
كذلك على هذا التقليد ، بعد أن عاد من مفسامراته في
الشرق وهو أشد تأثيراً بالاسلام منه تشرباً لروح الفزوات
الصليبية . وكان بلاطه يعج برجال العلم ويحتدى كثيراً
من أنماط الحياة الشرقية .

ويُفضل تأثير خلفاء روجر الأول الموالين للعرب ، تهيأ
للحضارة العربية أن يستمر نفوذها في صقلية إلى عهد
مهند حتى القرنين الرابع والخامس عشر . وفضلاً عن

ذلك بسبب سيطرة الملوك النورمانديين على جنوبى إيطاليا الى جانب صقلية ، وجدت الثقافة العربية طريقها الى إيطاليا ذاتها . وأصبحت الحسرف اليدوية مثل الاشغال الحسكومية وتجليد الكتب والتطعيم بالذهب والفضة ونسج الحرير يؤتى بها من صقلية الى إيطاليا ، وامتد التأثير الى أشكال معينة من فن المعمار - مثل أبراج الأجراس التى نقلت أغلب الظن محاكاة للمثدنة الإسلامية . أما عن أزياء اللباس ، فقد أصبحت الأقمشة الشرقية تحاكي فى معظم البسلاطات الأوربية ، وفدت الرسوم والتصميمات الصقلية ، تحتلدى لدى الرجال والنساء من الطبقات الراقية فى كل مكان .

والواقع ان من الانصاف القول بأن صقلية قد لعبت دورا يماثل فى عظمتة دور اسبانيا العربية فى نقل الفنون والحرف العربية الى أوروبا . ونظرا لأن صقلية كان من حسن حظها أن غزاتها الجسدد كانوا حكاما متنورين ومتعاطفين نسبيا ، فقد استمر العرب الصقليون يلعبون دورهم وقت ان كان أبناء عموماتهم فى اسبانيا يلقون القمع بأيدي الغزاة الأوربيين . ولكن بسبب قلة أعدادهم فإنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ الى ما لا نهاية بتفوقهم الثقافى . ون استمداد أفكار جديدة من المراكز الأهلية الكبرى للعلم والمعرفة العربية فى بغداد ودمشق وقرطبة . فاذ ذاك كان قد انطفأ كل أمل فى مثل هذا التعزيز الثقافى . فان بغداد ودمشق خربتا أولا بأيدي جحافل المفل القادة من آسيا الوسطى ، ثم سقطت بعد ذلك تحت الأيدي الهامدة الميتة للأتراك العثمانيين . أما فيما يتعلق بقرطبة فان ما أطلقوا عليه (حل المشكلة المغربية) جعل محاكم

التفتيش الأسبانية تخدم بصورة دائمة أسنى ضسو
للمعرفة في عالم العصور الوسطى .

وبعد ذلك دارت العجلة دورة كاملة . فان الثقافة التي
جاءت للعرب من اليونان القديمة ، ما لبثت أن عادت الى
أوربا الحديثة . وخلق كل الجهد الأدبي العربي على مدار
الثلاثمائة والخمسين عاما التالية . وجاء الدور على العرب
لكي يغيروا من جديد في العصور المظلمة .

الفصل الرابع عشر :

ثورة الشيعة
وانهيار الدولة العباسية

حينما انهارت الاسرة الاموية الحاكمة في عام ٧٥٠ انتهى العلويون الفرصة لتحقيق حلمهم في الخلافة وربطوا حظهم بالثورة العباسية . والآن ما لبثوا ان برزوا مرة اخرى لاستغلال تدهور نظام الحكم العباسي . فعندما اسلم خلفاء المأمون انفسهم لحراسهم الأتراك ، كان الشيعة متربصين لتحقيق الحلم ، وفي هذه المرة فقط اوشكوا على تحقيقه .

يبد ان الانقسامات التي تعرض لها مذهبهم عاقت هذه الحركة بسبب اصرارهم على أن يكون الخليفة من نسل علي ، حتى سموه (الإمام المهدي) ، ثم (المنتظر) . ولم يتيسر اجتماعهم على رأى الا بعد ظهور طائفة منهم عرف أفرادها باسم (الاسماعيلية) ، نسبة الى اسماعيل من أحفاد الحسين . وكان مؤسس هذه الطائفة عبد الله بن ميمون ، وكان ابن طبيب عيون فارسي ، وقد بدأ نشاطه بتنظيم ثورات شيعية . . أثناء حكم المأمون . فأخذ يرسل مبعوثه الى البصرة أولا ثم الى السلمة في شمال الشام للتشكيك في معتقدات السنين ولاءلان قرب قدم الإمام المنتظر الذي سيعود يوما الى الظهور ويعيد الدين القويم ، ولما كان داعية سياسيا فقد استغل الى ابعـ

حد العداوة المتزايدة بين العرب والفرس وأعلن انه يهدف الى تشكيل حركة توحد بين كافة المفكرين الأحرار وتتمكن من انتزاع الخلافة من العباسيين (المفتصبين) وتضعه هو وذريته على العرش .

واذا كانت هذه المطامع الشخصية لابن ميمون لم تتحقق ، فبوفاته عام ٨٧٤ كان قد استهل حركة أدت الى ظهور طوائف وجماعات سرية أخرى استطاعت بدورها بث الرعب والاضطراب في الامبراطورية ، ونجحت على الأخص وبصورة مثيرة في اجلاس أسرة شيعية حاكمة على عرش مصر على امتداد مائتي عام . وأول هذه الجماعات شكلها أحد أتباع ابن ميمون المتعصبين له وهو حمدان قرمط وكان فلاحاً من العراق . وقد استطاع بقوة شخصيته استغلال معاناة الفلاحين المحليين وبدو القبائل وتآلبت هؤلاء على الأخص بالعراق والشام وبلاد العرب ودفعهم الى الثورة ضد العباسيين والأتراك المتسلطين عليهم ، وعلى مدار المئة عام التالية واصل القرامطة هجماتهم على الخلافة وأغرقوا الشام والعراق في الدماء . ولكن على الرغم من نجاحاتهم في هذا الميدان ، فقد ظلوا مجرد حركة فوضوية تؤثر مقاومة سلطة الآخرين على ممارستها لنفسها .

بيد ان أبناء عموماتهم الفاطميين كانت لهم قصة أخرى مختلفة تماماً . فعلى الرغم من انتمائهم أيضاً لطائفة الأنسماعيلية ، الا أنهم لم يأخذوا بمذهب القرامطة التخريبي ، وقد تهيأ لهم أن يظفروا بامبراطورية وأن يقيموا خلافة لهم أصبحت أشد قوة وأعلى مكانة مما كان لمعاصريهم العباسيين .

كان مؤسس الفاطميين ، الذين اتخذوا اسمهم من

دعواهم بصلة النسب الى فاطمسة بنت النبی ، هو سعيد بن حسين ، من نسل عبد الله بن ميمون مؤسس الاسماعيلية الفارسي . وفي عام ٩٠٩ قدم الى تونس من مركز الاسماعيلية في السلمية ، وعلى الرغم من الزج به في السجن على يد الحاكم الاغلبی ، الا انه انتقد بمساعدة يمني يدعى عبد الله الحسين . وكان عبد الله قد نجح في تحويل قبائل البربر في شمال افريقية الى المذهب الشيعي ، وقد تعاون هو وسعيد بعد خلاصة من السجن في الاطاحة بالاغلبية السنيين والاستيلاء على امبراطوريتهم الخاصة ، بما فيها صقلية ومالطة . وقد نودي بسعيد اماما وخليفة واتخذ لقب عبد الله المهدي . ثم اسس عاصمة جديدة سماها المهديدية على الساحل التونسي قرب القيروان ، واتجه بعد ذلك الى بسط رقعة ملكه غربا . ولكن بعد ان واجهه عبد الرحمن الثالث على ساحل البربر تحول بالزحف الى مصر . وفي عام ٩١٤ استولى على الاسكندرية ، وبعد عامين خرب دلتا النيل . كما استعان بالاسطول الذي غنمه من الاغلبية وأغار على سواحل فرنسا وجنوا وكالابريا .

ولم تؤد وفاة سعيد عام ٩٣٤ الى وقف التوسع لامبراطورية الفاطميين . فقد استأنف ولده الضفط على سواحل أوربا واستولى على جنوا ، واستطاع المعز أحد حداثه أن يمد حدوده الغربية حتى المحيط الاطلنطي . ثم لم يلبث الفاطميون أن حققوا أعظم انتصار لهم بإضافة مصر الى امبراطوريتهم المتزايدة . كان عبد صقلي سابق يدعى جهر الصقلي هو قائد جيوش الفاطميين التي فتحت مصر . وبعد أربع سنوات من دخوله المظفر الى العاصمة ، اقام اثرا أعظم لتخليد شهرته بإضافة حي جديد الى القسطنط هو الذي أصبح عاصمة مصر الفاطمية

تحت اسم القسساهرة . وفي نفس الوقت بنى جوهر
الصقلي جامع الأزهر العظيم ، الذي غدا أكبر معهد
للدراستات الإسلامية .

ولم تلبث مصر أن تحولت من المذهب السني القويم
الى الهرطقة الشيعية ، ولعل قبول المصريين لهذا التحول
كان راجعا الى حنين الكثيرين منهم الى حدوث تغيير يهيء
لهم استقلالا حقيقيا عن السيطرة العباسية . نعم ان
الفاطميين عجلوا فيما بعد على تقض هذا الاثر الطيب
لهذا التغيير عندما فرضوا المذهب الشيعي على المصريين
عنوة وعندما هادوا الى أسلوب العباسيين في جلب
الماليك الأتراك لتعزيز الجيش . ولكن مصر كلها ابتهجت
عندئذ بهذا التحرر الذي بدا فجأة كأنما هبط نعمة على
الناس .

وبالاستيلاء على مصر ورث الفاطميون السيطرة على
الشام واليمن والحجاز ، بما في ذلك المدن المقدسة التي
كانت الخلافة المضمحلة في بغداد عاجزة عن رفع أيديهم
عنها ، ولم تلبث خلافة الفاطميين الشيعية المنافسة أن
فاقت العباسيين السنيين قوة ونفسوذا . فمن المحيط
الأطلسي الى المحيط الهندي كان اسم المعز هو الذي
يذكر في صلاة الجمعة دون اسم الحاكم الأعزل في بغداد .

ومع ذلك ، وبرغم نجاح الأسرة الفساطمية في أول
عهدا ، فلم يقدر لها أن تكون أطول عمرا من العباسيين .
ولم يمض وقت طويل على الانتصار الكبير الذي حققه
جوهر حتى بدأت الأسرة في التدهور . فان (الحاكم)
حفيد المعز كان في الحادية عشرة من عمره حين ولى
العرش ، وعندما بلغ طور الرجولة بدا جليا انه متعصب
مجنون يتلذذ بالقسوة والقمع ويمارسهما بأسلوب شيطاني

ضد المسيحيين واليهود ، اذ أجبرهم على لبس السواد
وركوب الحمير ووضع اطواقه حول أعناقهم . وقد قتل
(الحاكم) العديد من وزرائه الذين سعوا الى التخفيف
من بشاعة أعماله . وفي محاولة عمياء للقضاء على
المسيحية في أملاكه دمر عددا من الكنائس . وقد جاوز
هذا المجنون كافة الحدود عندما ادعى الألوهية ، وأخيرا
لقى حتفه قتلا في عام ١٠٢١ فوق جبل المقطم بتحريض
من اخته التي اتهمها في عفتها .

وقد حاول خلفاء (الحاكم) التعويض عن تطرفه ،
فبدأوا بإعادة بناء كنيسة القيسامة . بيد انهم كانوا في
أغلبهم شبانا ينقصهم النضج ، عاجزين عن وقف الفساد
الذي عم . فقد ثارت الشام وفلسطين على السيطرة
المصرية . واستولى النورمانديون على صقلية ومالطة ،
وأخذت ولايات الامبراطورية الفاطمية تتسلخ واحدة تلو
الأخرى ، بل ان بعضها عاد الى ولائه القديم للعباسيين .
وفي الداخل عاد الحرس من المماليك الاتراك والشراكسة
الى تكرار عملية مواظبتهم في بغداد ، فاغتصبوا سلطة
الخلافة ، وعينوا وزراء من ذبولهم المقربين . يضاف
الى هذا كله تفشى المجاعة مدى سبع سنوات مما أدى
الى خراب البلاد واستنزاف مواردها .

ومع ذلك فان الفاطميين برغم هذه النكسات وتأثرا
منهم بأصول الفارسية ، استمروا يحيون حياة الترف
والإبهة التي كادت تضارع مثيلتها في بغداد في عصر « ألف
ليلة وليلة » . وكان القصر في القاهرة يؤوى ما لا يقل عن
ثلاثين ألفا من الناس ، نصفهم من الخدم والباقي من جنود
حرس الخلافة وعائلاتهم . وكان للخليفة شخصا عشرون

ألف بيت في العاصمة ، معظمها من الطوب وبارتفاع حوالى خمسة طوابق ، وعدد مماثل من الحوانيت . وكانت الشوارع الرئيسية مرصوفة ومضاءة ، وشوارع الأسواق مسقوفة . وكانت الأمانة وحسن المعاملة مرصيتين الى حد كبير . وكانت الرقابة الصارمة على الأسعار مفروضة على أصحاب الحوانيت ، وكان من يبيعون بأسسعار تجاوز الحد الأقصى يطاف بهم فوق جمسال . ويكرهون أمام الناس على الاعتراف بسوء فعالهم . وكانت السرقة تكاد تكون غير معروفة ، وكانت حوانيت الصباغة والسيارة تترك بغير أقفال في الليل . وكان الخلفاء الفاطميون يقتنون مجموعة ضخمة من المجسورات والعلى الذهبية وآنية المائدة والبلور والعاج والأبنوس . وكانت سسيفهم وخناجرهم مطعمة بالأحجار الكريمة ، وفى المناسبات الرسمية العاصمة كانت تمتد فوق رؤوسهم مظلات كبيرة محلاة بالجواهر . ومع ذلك فعندما أصابت المجاعة مصر عام ١٠٧٠ لم يتردد الخليفة القائم فى إرسال أطفاله الى بغداد لئلا يتعرضوا للموت جوعا فى مصر .

وفى مجال التقدم الثقافى كان الفاطميون متخلفين كثيرا عما كان ينتظر من أسلافهم الفرس . لقد بنى جوهر الصقلى جامع الأزهر ، وأسس العزيز أب (الحاكم) مكتبه قيل انها ضمت فى وقت من الأوقات مائتى ألف كتاب ومخطوط ، تعرض الكثير منها فيما بعد للنهب على أيدى الجنود الأتراك الذين استخدموا المخطوطات فى أشغال نيرانهم وأغلفة الكتب الجلدية فى ترقيع نعالهم . وكان (الحاكم) أيضا مشغوقا بالفلك ، فبنى مرصدا فوق جبل المقطم الذى لقى فيه مصرعه . كما بنى (دار الحكمة) للترويج للمذهب الشيعى . ولكن ، بفض النظر عن هذه الأمثلة القليلة ، كان الإنتاج الثقافى

للفاطميين هزيلا . فقد كان العلماء والكتاب سواء كانوا من أبناء البلاد أو من الخارج لا يجدون الا اقل التشجيع واكبر التخذيل في جو يسيطر عليه التعصب الشيعى . ومع تقدم الحكم الفاطمى تحول ما بدا انه تغيير منعش الى لون من التعصب الشديد تفاقم الى حد انكار كل حرية للتعبير .

لكن اذا كان التعصب الشيعى قد حال دون قيام رجال الفكر برسالتهم ، فان غيرهم قد خيل بينهم بالمثل وبين الثورة على الحكومة الدينية الفسالة وعلى التحالف غير المقدس بين المماليك والخلفاء . وهكذا تشبث الفاطميون بملكهم المتهاوى مدى مئة وخمسين عاما بعد موت (الحاكم) . وفى خلال المائة عام الأخيرة من حكمهم ، لم تكن امبراطوريتهم تتألف الا من القليل غير مصر ذاتها . ولكن ، مع اشتداد ضعف بفسداد وانهماكها البالغ فى مشاكلها الخاصة مما حال بينها وبين محاولة استرداد مصر ، فقد اتيح لهذا الفرع المتداعى من الطوائفة الاسماعيلية أن يظل بعيدا عن التحدى ، الى أن أصبحت مصر مسرحا للقتال بين صلاح الدين والصليبيين فى عام ١١٦٤ .

وقبل أن يبدأ الفاطميون فى مصر فى التدهور والانحيار بوقت طويل ، كان العباسيون التعساء فى بغداد يتداولهم الحكام الأتراك واحدا بعد الآخر ، وكل منهم يقتصب السلطان بقلطة أشد من سابقه ، كان الخلفاء يجيئون ويذهبون ، كل منهم يقتل أو يخلع بعد بضع سنوات ، وجميعهم لم يكونوا سوى أدوات ذليلة بين أيدي سادتهم الأتراك . وكان الفساد والفدر هما الطابع الغالب فى تلك الأيام . لم يكن أحد آمنا على نفسه من السفاح ، وأقلهم

حظيها من الأمن كان الخليفة نفسه . وفيما يختص بالامبراطورية ذاتها ، فان عوامل الفرقة التي لا بد من وجودها في كومنولث متعدد القوميات استغلت الى اقصى حد الضعف السائد في المركز . فبنهاية القرن السادس كان شمال افريقية ومصر مستقلين ، وذهبت الشام مع مصر ، واجتاح القرامطة شبه الجزيرة العربية وجنوب العراق . وانسلخت اجزاء من فارس قبل ذلك ، فحكمتها سلسلة من الاسرات الصغيرة المستقلة تعاقبت عليها ، مثل الصفارية ، والسامانية ، وبنى بويه الذين اقاموا الدولة الفـزنوية وكانت لهم مطامع في غزو العراق . ولما تم لهم ما ارادوا صاروا يعينون الخلفاء ويعزلونهم حسب اهوائهم ، واصبحت بغداد مجرد عاصمة اقليمية تخضع للأوامر التي تصدر اليها من عاصمتهم في شيراز .

وفي خلال ذلك بدأت قوة تركية جديدة في الشرق تتوغل في املاك الفزنويين . كانوا السـنـسـلاجـقة الاتراك الذين استمدوا اسمهم من زعيم تركماني يدعى سلجوق ، الذي قاد قبيلته عام ٩٥٦ من سهول القرغيز في تركستان لكي يستقر في الاقليم المحيط ببخارى ، حيث اصبحوا مسلمين . سنين . متحمسين . وبانتهاء القرن قام طغرل حفيد سلجوق بالزحف الى خراسان واستولى على مرو ونيسابور من الفزنويين . وبانتشار جيوش طغرل في اراضي الفزنويين استولوا ايضا على بلخ والري واصفهان . وبعد ثمانى عشرة سنة من اول زحف لـجـيـوش طغرل من بخارى ، وصل على راس قبائله الى ابواب بغداد ذاتها . كان ذلك في الثامن عشر من شهر ديسمبر عام ١٠٥٥ ، اي بعد مئة وعشر سنوات من وصول الفزنويين الى هذه الابواب . وكما حدث في المرة السابقة عندما

فر حرس الخليفة الأتراك أمام الغزنويين ، فان هؤلاء فروا
الآن من السلاجقة ، ولم يتركوا للخليفة خيارا سوى
الترحيب بالفاحين الجدد .

وقد انتزع طغرل أيضا آخر قطرة من المجد لنفسه
والأذلال للخليفة في الاحتفال الذي نصب فيه وصيا على
الامبراطورية وملكا على الشرق والفسرب ، مع لقب
السلطان . لقد جلس طغرل على عرش في مواجهة الخليفة ،
حيث تلقى خضوعه وتأكيدا بصداقة دائمة . وبعد هذا
المشهد المنقطع النظر خلعت عليه سبعة أثواب تسكريما
له ، تمثل الولايات السبع البساسقية في الامبراطورية
العباسية ، وحزام به سيفان يرمزان الى نصفى المملكة
الشرقية والغربية . وفي النهاية زحف طغرل بجيشه من
بغداد واتخذ عاصمته في مرو بأقليم خراسان .

وقد اتبع طغرل هذه الانتصارات بالزواج من ابنة
الخليفة . بيد انه لم يمتد به العمر بعد الزواج ، اذ توفي
عام ١٠٦٣ ، تاركا ابن أخيه الب أرسلان أو (البطل
الاسد) خلفا له . وكان هذا الشاب اللامع الوسيم قد
علا شأنه في غزوات السلاجقة لفارس والعراق ، كما كان
أقرب الى القرابة ، اذ كان له شاربان فائقا الطول الى
حد كان لابد معه من ربطهما الى وجهه اذا خرج للصيد .
وبالنسبة الى شخصه كان أبوه مجرد كافر همجي قبل ان
يتحول الى الاسلام وكان هو ذاته أميا تماما ، فان تقديره
للفنون كان ماثرا للقرابة . لقد امضى طغرل معظم حكمه
القصير للعراق في تدعيم مركز السلاجقة والقضاء على
ما جاء به الغزنويون من النفوذ والعبادات الشيعية .
وهكذا فانه عندما ورث الب أرسلان السلطة كانت

الامبراطورية العباسية موحدة كما لم تكن لأكثر من مئة وخمسين عاما . نعم ان اسبانيا وشمال افريقية ومصر كانت لا تزال مستقلة ، لكن تهديد القرامطة في شبه الجزيرة العربية كان قد زال في النهاية ، ومن دمشق الى بخارى كان السلاجقة قد توطد سلطانهم بلا منازع . وبعد تأمين الجبهة الداخلية على هذه الصورة لم يضع الب ارسلان وقتا في مد رقعة املاكه على حساب الامبراطورية البيزنطية . فزحف بمسد سنة من ولايته العرش الى داخل ارمينيا المسيحية واستولى على عاصمتها آنى . وفي عام ١٠٧١ هزم الروم عند منزيكرت في ارمينيا واصر الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجنيس . وعندما سيق امام آسره سئل الامبراطور ما الذي كان يفعله بالب ارسلان لو انعكست الآية ، فجاء الرد الصريح بهذه العبارة : « كنت أجلك حتى الموت » . والواقع ان هذه الصراحة البالغة جعلت السلطان السلجوقي يوافق على الإبقاء على حياة رومانوس في مقابل فدية ضخمة وجزية سنوية ، بالاضضافة الى تسليم جميع الاسرى المسلمين لدى الروم .

وقد بدأت القبائل السلجوقية بعد ان ازاحت الحكم البيزنطي عن جزء كبير من آسيا الصغرى تنتقل من الشرق وتستقر في الاراضي التي غزوها حديثا . وهكذا ولأول مرة أصبحت هذه الاقاليم منضوية تحت لواء الاسلام ، ووضع الأساس لقيام الدولة التركية المسلمة في العصر الحديث . ان غيرهم من الفاتحين والخلفاء المسلمين من امويين وعباسيين قد فتحوا واحتلوا مرارا مناطق كبرى من آسيا الصغرى خلال القرنين الثامن ، والتاسع ، ولكن مد الحروب كان يردهم دائما الى الخلف . فضلا عن ذلك فان الجيوش العربية لم تكن

تجد الفرصة ولا كانت لديها الرغبة في الاستقرار في هذه الهضاب المرتفعة الوعرة البعيدة عن الدفء والخصب في الشام وفلسطين والعراق . أما الأتراك السلاجقة فقد هبطوا من أراضى موحشة تجتاحها الرياح في تركستان ، وقد شعروا أنهم في ربوع ديار آمنة في المناخ البارد والجبال الوعرة في آسيا الصغرى .

ولقد بدا أن الب أرسلان أحب الأرض المرتفعة هو أيضا ، ففي خلال السنوات التسع من حكمه لم يزر بغداد قط وجعل عاصمته في أصفهان بفارس . وفيها كان وزيره نظام الملك الفارسي المشهور ، وهو من أعظم رعاة العلم والمعرفة في تاريخ الإسلام . فان نظام الملك هو الذي أسس « معهد النظامية » في بغداد ، الذي أصبح نموذجا لكل معهد آخر للتعليم العالي في العالم الإسلامي . وهو الذي أصلح التقويم الفارسي ، ووضع تحت رعايته عمر الخيام الشاعر الرياضي الفلكي الأشهر وساعده في اخراج (رباعياته) وغيرها من المؤلفات . ولقد أخبرنا المؤرخ ابن خلكان أن نظام الملك كان يجمع في يديه مقاليد السلطة كلها ، في حين لم يكن الخليفة يملك شيئا ولم يكن له إلا أن يجلس على العرش أو يتمتع بالصيد . ومهما يكن فان نظام الملك كان سلطة مؤثرة ومتحضرة ، فقد ألقى شعاعا ثقافيا باهرا فوق المشهد المظلم لتدهور العباسيين وانهارهم .

ولقد توفي نظام الملك مع (ملك شاه) الخليفة التالي في عام واحد ، ١٠٩٢ ، الأول بيد شيعي متعصب والثاني بالسهم . وثار نزاع على السلطة بين أبناء (ملك شاه) الثلاثة ، وما لبث الصيف المشرق الزاهي الذي نعمت به الامبراطورية تحت حكم السلاطين السلاجقة الثلاثة الأول

ان انحسر سريعا الى شتاء من الانقسام والهزيمة . وعلى الرغم من ان السلجوقيين استمروا يسيطرون على الخلافة مدى قرن آخر ، فان الامبراطورية التي وحدها طغرل والب ارسلان سرعان ما آذنت بالزوال . فقد انفصلت الولايات الشرقية ، الى غير ما عودة قط ، وفي نفس الوقت زحف الصليبيون من الغرب . وبعد ذلك بمئة وخمسين عاما هبطت جماعات المغول بقيادة جنكيز خان وهولاكو من الشرق ووضعت نهائية لاحتضار البيت العباسي الذي كان يعالج سكرات الموت .

ولقد كان مقدرا ان يعرف العالم الاسلامي فيما بعد مرحلتين من المجد والنجاح من القزوين المسيحي والوثني المغولي . كان مقسدا ان يسطر كل من صلاح الدين والسلطان المملوكي بيبرس صفحتيهما المشرقتين في تاريخ الاسلام . ولكنهما استمدا من مصر لا من بغداد القوة التي ردت الصليبيين على أعقابهم وصدت المغول من بعدهم . ذلك ان بغداد قد انتهى دورها كفيصل في الاحداث ، واصبحت الآن مجرد متفلسف عليها فيما بقي من الامبراطورية العباسية .

فهرس

القسم الاول :

٨	العالم العربى قبل الاسلام
٢٣	ظهور النبى (صلى الله عليه وسلم)
٣٦	بدايات الامبراطورية
٥٠	فتح قارس ومصر
٥٧	الحرب الاهلية
٦٧	الارهاب والفتح فى الشرق
٧٢	المد الاموى ، ثم انحساره

القسم الثانى :

٨٠	الثورة العباسية
٩٠	البعث الاموى فى اسبانيا
٩٩	الف ليلة وليلة
١٠٦	العصر الذهبى للعباسيين
١٢٢	انفصال مصر عن الخلافة
١٢٣	صيف مشرقى للأمويين فى اسبانيا
١٤٩	ثورة الشيعة وانهيار الدولة العباسية

كتاب الهلال القادم :

الجزء الثاني من :

**العسرب
تاريخ وحضارة**



تأليف : انتوني ناتير

يصدر ه فبراير القادم

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة - ص ٥ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

THE ARABIC PUBLICATIONS

7. Bishopstrove Road
London S.E. 26
ENGLAND

انجلترا :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

البرازيل :



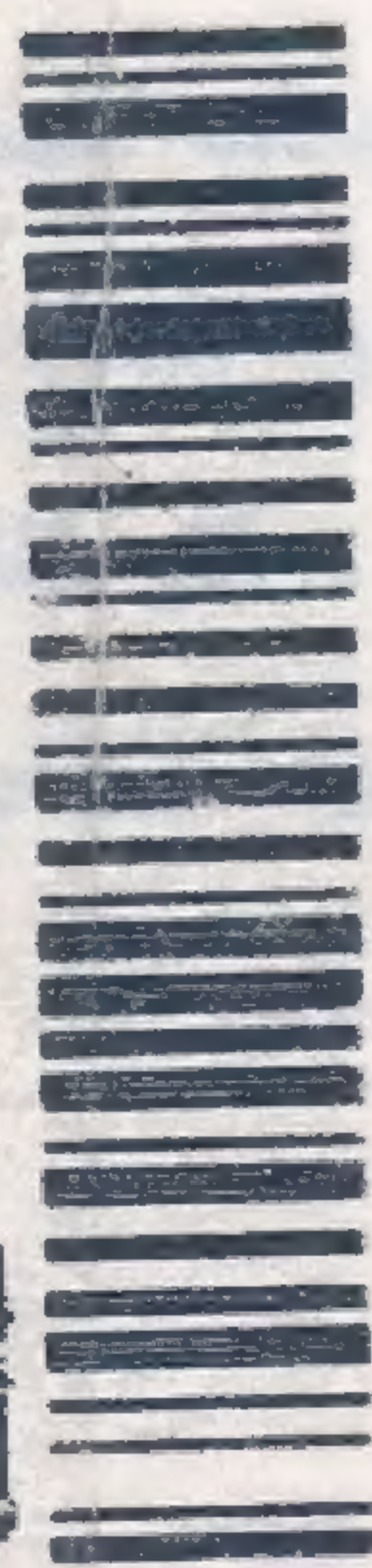
هذا الكتاب

انتوني ناتنج سياسي انجليزى اشتهر بالصدق والوقوف الى جانب الحق والصلابة فى الراى ، وعندما وقع الاعتداء الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ احتج على ذلك العدوان واستقال من وظيفته وكان وزيرا للدولة للشئون الخارجية فى وزارة انتونى ايدن ، ولم يغفر لليهود له موقفه الى جانب مصر والعرب فطارده ولم يحفل لهم واصدر كتابه « العرب » وقص فيه تاريخ العرب بأسلوب سهل موجز ممتع يادىء من العصر الجاهلى ومنتهيا الى العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ .

وفى الفصول الخاصة بالعصر الحديث وقف ناتنج ا
العربى وكشف مخططات اليهود بالتآمر مع قوات الاس
فلسطين من ارض العرب وتسليمها لليهود بالخداع وال
فى أسلوب علمى دقيق مؤيد بالوثائق لهذا اختار الها
ليهديه الى قراء العربية على جزءين .

وهذا هو الجزء الاول .

Bibliotheca Alexandrina



0678833

049

36

٢٠ فبراير